Satirical Dystopia in Modern Literature - The Book (A Nation Withdrawing from History) as an Example

Suiltana M. Greiz[(1)*]

(1) Assistant Professor, Ajloun National University, Ajloun - Jordan.

Received: 01/03/2024
Accepted: 29/04/2024
Published: 15/09/2024

* ***Corresponding Author:***
suiltanagreiz@gmail.com

DOI:https://doi.org/10.59759/art.v3i3.678

Abstract

This research seeks to reveal the literature of (satirical dystopia) and the manifestations of that concept and its operations within the textual space, as a new term given to creative works that depict corruption, evil, and tyranny in a society whose moral values are absent. In light of this trend, literary and critical works began to shed light on the features of urban corruption in literary discourse in general to achieve communication between the human self, cultural, and social systems, especially since the text is based on the duality of consciousness and existence. This duality engages with the artistic and semantic levels in form and content, to form a window for the alternative equation, which carries cultural and ideological references and searches for the future and anticipates its events. We have monitored concepts that are one of the research mechanisms and an important foundation of its main foundations, within the first section by pursuing the concept of dystopia and its approach in literature, as well as examining the concept of sarcasm, being a unique strategy in dealing with events, criticizing them, and anticipating the future. Then, in the second section, the study begins to monitor the conflicts of dystopia and identify its most prominent techniques and scenic manifestations related to science fiction in the book (A Nation Withdrawing from History), the model, and its semantic and artistic works, which intersect with cultural references.

This cognitive and methodological interweaving resulted in the extremely important place occupied by the satirical dystopia in (Waleed Maabreh's) literary work, as a cultural signifier and a cognitive communicative field. It is so as it exposes the social, political, moral and psychological aspects of dystopia, and anticipates future dark events by observing this theme and drawing its images with a visionary significance and artistic aesthetics. This theme represents an explicit call for an implicit dystopian revolution, rejection and resistance to societal collapse and political oppression to achieve a dreamy utopia that achieves freedom, justice, happiness and humanity.

Keywords: Dystopia, Sarcasm, Satirical Dystopia Literature, The Book (A Nation Withdrawing from History), Waleed Maabreh.

الدّيستوبيــا الساخــرة فــي الأدب الحديــث: كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) أنموذجا

سلطانة محمد غريز[1]

(١) أستاذ مساعد، جامعة عجلون الوطنية، عجلون – الأردن.

ملخص

يسعى هذا البحث للكشف عن أدب (الدّيستوبيا السّاخرة) وتمظهرات ذلك المفهوم واشتغالاته ضمن الفضاء النّصّيّ، بوصفه مصطلحاً جديداً يطلق على الأعمال الإبداعيّة الّتي تصوّر الفساد والشّرّ والاستبداد في مجتمع غابت قيمه الأخلاقيّة، وفي ظلّ هذا المنحنى بدأت الأعمال الأدبيّة والنّقديّة تسلّط الضّوء على معالم فساد المدن في الخطاب الأدبيّ عامّة، محقّقاً تواصلاً بين الذّات الإنسانيّة والنّظم الثّقافيّة والاجتماعيّة، ولا سيّما أن النّصّ يقوم على ثنائيّة الوعي والوجود التي تشتبك مع المستويات الفنّيّة والدّلاليّة شكلاً ومضموناً، لتشكّل نافذة للمعادلة البديلة، التي تحمل مرجعيّات ثقافيّة وأيديولوجيّة، وتبحث في المستقبل وتستشرف أحداثه، آثرنا رصد مفاهيم تعدُّ إحدى آليّات البحث ومرتكزاً مهمّاً من مرتكزاته الرّئيسة، ضمن المبحث الأوّل بملاحقة مفهوم الدّيستوبيا ومقاربته في الأدب، فضلاً عن الوقوف على مفهوم السّخرية، بوصفها إستراتيجيّة فذّة في تناول الأحداث ونقدها واستشراف المستقبل، ثمّ تبادر الدّراسة في المبحث الثّاني رصد صراعات الدّيستوبيا، والوقوف على أبرز تقنياتها، وتجلّياتها المشهديّة المتّصلة بالخيال العلمي في كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) الأنموذج، واشتغالاتها الدّلاليّة والفنّيّة، التي تتقاطع والمرجعيّات الثّقافيّة.

وقد أفرز هذا التّشابك المعرفيّ والمنهجيّ المكانة البالغة الأهميّة الّتي احتلّتها الدّيستوبيا السّاخرة في منجز (وليد معابرة) الأدبيّ، بوصفها دالاً ثقافيًّا، وحقلًا تواصليًّا معرفيًّا؛ إذ يعرّي مظاهر الدّيستوبيا الاجتماعيّة والسّياسيّة والأخلاقيّة والنّفسيّة، و يستشرف أحداثاً سوداويّة مستقبليّة، عبر رصد هذه الثّيمة، ورسم صورها دلاليّاً و رؤيويًّاً وفنّيًّاً وجماليّاً، التي تمثل دعوة صريحة لثورة ديستوبيّة مضمرة، ورفض ومقاومة للانهيار المجتمعيّ والقمع السّياسيّ، لبلوغ يوتيوبيا حالمة تحقّق الحرّيّة والعدالة والسّعادة والإنسانيّة.

الكلمات المفتاحيّة: الدّيسْتوبْيا، أدَبْ الدّيسْتوبيا السّاخِرة، كتاب أمّة تنْسَحِبُ من التّارِيخ، وليد معابرة.

المقدمة

شهدت الحركة الأدبيّة تطوّراً ملحوظًا وازدهاراً كبيراً، نتج عنها تشكّل ظواهر أدبيّة جديدة، تدفّقت في الحقول الأدبيّة والنّقديّة العربيّة الحديثة، إلّا أنّها واكبت الحياة في البحث عن مظاهر التّحوّل والتّطوّر وعمليات التّغيير والتّحوير المستمرّة، أي النّصّ: "ليس فعلًا ذاتيًّا مفردًا ينبثق من

الذّات ذاتها، وإنّما يتشكّل في إطار شبكة معقّدة من البنى الثّقافيّة والمصادر المعرفيّة التي تحملها، والّتي تمكّنها عبر سلسلة من العمليّات السّيكولوجيّة والعقليّة والإجرائيّة من إنجاز نصوصها"، (الزعبي، ٢٠٠٢، ص٧٧) التي تتقاطع في إطار مرجعيّاتها الثّقافيّة وأصولها وارتباطاتها الاجتماعيّة والتّاريخيّة والسّياسيّة المتعدّدة؛ لتمثّل مرتكزاً أساسيّاً للسّياق السّوسيوثقافي الّذي ينبثق منه النّص، يحمل أثناء انصهاره في الأدب خطابًا انزيّاحيًا مفارقاً وخياليّاً ذا دلالات سياسيّة وسيكولوجيّة واجتماعيّة، ممّا أضفى عليه خصوصيّة مميّزة، وفي ظلّ هذا التّداخل والتّوتّر المعرفيّ والمنهجيّ، حمل القرن العشرون انعطافات وتحوّلات جذريّة في الوجود الإنسانيّ، وتغيّرات جوهريّة في السّياقات الاجتماعيّة والسّياسيّة الّتي تكشّفت أنساقها الثّقافيّة المتداخلة حدّ التّمازج ضمن أفق الواقع المعيش، بما فيه من نكبات سياسيّة واجتماعيّة عربيّة أو محلّيّة، الّتي شكّلت هاجساً مركزيّاً للنّصّ الأدبيّ الخاضع لقانون الجذب والإقصاء، ومجالًا خصباً يزاوج بين التّحليل الدّلاليّ والفنّيّ والانشغال المعرفيّ والجماليّ، بحيث تحوّل الخطاب إلى معطى ثقافيّ وسيرورة نسقيّة، بأبعاد إنسانيّة، ومعايير جماليّة، تجلّت مصطلحاته النّظريّة وأدواته المنهجيّة من خلال القراءة المعاينة النّصّيّة لثيمة (المدينة الفاسدة) وفضائيّتها فنّيّاً وثقافيّاً.

وانطلاقا من التّماس الثّقافيّ في منظومة العلاقات النّصّيّة؛ تولّدت الرّغبة في الكشف عن جماليّات "الدّيستوبيا السّاخرة"، وكيفيّة تشكّلها القصديّ في الخطاب، والوقوف على أبعادها الثّقافيّة، وتتبّع أنساقها الظّاهرة والمضمرة، والغوص في أعماقها، والّذي أصبح ظاهرة بارزة في النّتاجات الأدبيّة العربيّة، محاولاً إثبات اشتغالاتها الجماليّة والدّلاليّة، بعد أن ثارت وتمرّدت على الضّوابط القيميّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة الرّاهنة، من خلال قراءة نقديّة تسلّط الضّوء على تجلّياتها، وتبرهن على أنّها مراوغة وموارية وصاخبة وثوريّة متمرّدة واعية، متّخذًا من كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) أنموذجاً، للبرهنة على صحّة المقاربة النّقديّة؛ إذ لم ينل عناية الأبحاث الأكاديميّة، ولم تشر الدّراسات إلى الظّاهرة المبثوثة في نتاجه الإبداعيّ.

ومن هذا المنظور حاول الباحث بلورة الإشكاليّة الأساسيّة في التّساؤلات التّالية: ما منطلقات الدّيستوبيا؟ وكيف استطاعت الدّيستوبيا اقتحام الإبداع الأدبيّ؟ وكيف تمظهرت الأنساق الدّيستوبيّة السّاخرة الّتي شكّلت البنية النّصّيّة لكتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) وما دلالاتها النّصّيّة والرّؤيويّة؟ وكيف استطاع وليد معابرة تمرير اشتغالات الخطابين: الدّيستوبي والسّاخر في وقت واحد؟

ولأنّ الدّيستوبيا في النّقد الثّقافيّ تتقاطع في اشتغالاتها المعرفيّة ضمن فضاء المقصود والمضمر، ولأنّها جاءت متشابكة مع البعد الأيديولوجيّ والسّوسيولوجيّ الكامن وراء السّطور، فقد برزت إشكاليّة البحث في تقصّي جدليّة الدّيستوبيا ومقاربتها في الأنساق السّاخرة، مستنداً إلى إبداعات النّتاج الأدبيّ، عبر الاختيار القصديّ للأنموذج كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) لفكّ شيفراته، واستكناه مضمراته الدّلاليّة، بما يتماشى مع طروحات البحث النّظريّة، وآليّاته الإجرائيّة ومقتضياته المنهجيّة.

واعتمدت الدّراسة على عدّة مرجعيّات معرفيّة بغية الإحاطة بجوانبها، منها:

- كتاب (الرّواية الدّيستوبيّة –أدب المدينة الفاسدة والواقع المرير) يحيى عبابنة، ٢٠٢٣، اتّخذ من موضوع المدينة الفاسدة ميداناً له، وعرّف الاصطلاحات النّقديّة ووضّحها، ثم انبرى ليشكّل مجالًا تطبيقيًّا لثلاثة أعمال تجتمع فيما بينها تحت ما يسمّى الدّيستوبيا.
- أطروحة دكتوراة (مظاهر الدّيستوبيا في الرّواية العربيّة: دراسة تحليليّة لنماذج مختارة) مجدولين مساعفة، جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة، ٢٠٢٢، قدّمت قراءة وتحليلًا للرؤية السّرديّة لعدد من الرّوايات الدّيستوبيّة، وتلقي الضّوء على القضايا الاجتماعيّة والظّروف السّياسيّة للدّول العربيّة.
- بحث (ثنائيّات الدّيستوبيا ومظاهرها في شعر فاروق شوشة) نور الدّين متولّي أحمد، مجلة كلية الدراسات الإسلامية بالإسكندرية، العدد ٣٩، الجزء الرابع، بين دور الثّنائيّات المترادفة والمتقابلة في الكشف عن مظاهر الدّيستوبيا في شعر فاروق شوشة.
- بحث (ضدّيّة اليوتيوبيا والدّيستوبيا قراءة في رواية) (قواعد العشق الأربعون) سعد داحس ناصر، مجلّة لارك الفلسفيّة واللسانيّات والعلوم الاجتماعيّة، المجلد ١، العدد ٤٤، ٢٠٢٢، قدّم إيضاحاً للتّضادّ الحاصل في المكان الواحد، على المستويين الرّوحيّ والواقعيّ، عن طريق مجموعة من الثنائيّات المفهوميّة والإجرائيّة والثّقافيّة الّتي تضمّنتها الرّواية.
- أطروحة دكتوراة (الأدب السّاخر في الأردن: المقالة الصّحفيّة والقصّة القصيرة نموذجًا) أحمد العويسي، الجامعة الهاشميّة، ٢٠١١، ناقش مفهوم السّخرية وأساليبها ووسائلها وأسبابها وتطبيقاتها على الكتابة الإبداعيّة.
- أطروحة دكتوراة (الكتابة السّاخرة في الأردن: دراسة موضوعيّة وفنّيّة) عطا الله حجايا، جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة، ٢٠١٦، عاين الكتابة السّاخرة في الأدب الأردنيّ، وبحث في

جذورها في أدبنا العربيّ، ونَفَذَ من خلالها إلى موضوعات السّخريّة وأسبابها وأساليبها الفنّيّة ووظيفتها.

وتكمن أهمّيّة البحث في تقصّي اشتغالات الدّيستوبيا السّاخرة في الأدب بوصفها مفهوماً فكريّاً ودلاليّاً ثقافيّاً، والكشف عن تمظهراتها في البنية النّصّيّة، وتجلّياتها الفنّيَّة والدّلاليّة وفق مقتضيات الحالة الشّعوريّة، وبيان ما يمكن أن تنتجه من اشتغالات فكريّة تفيد الباحثين في حقل الأدب والنّقد، ويمكن أن تفيد مقارباتها الدّلاليّة الباحثين في الدّراسات الاجتماعيّة والنّفسيّة والسّياسيّة والفنّيّة لعلاقته الوطيدة بعلم السّوسيولوجيا والأيديولوجيا، ممّا يسهم في خلق مقاربات فكريّة وجماليّة بين العلوم الإنسانيّة والفنون الإبداعيّة على اختلاف مجالاتها.

وضع الباحث للتّعرّف إلى: الدّيستوبيا السّاخرة في الخطاب الأدبيّ، خطّة منهجيّة قائمة على المنهج الثّقافي، والإفادة من معطيات الأدوات المنهجية الوصفية والتّحليليّة والأسلوبيّة، مستعيناً بعدد من الآليّات كالاستقراء والاستدلال التي من شأنها المقاربة الاصطلاحيّة والتّفسيريّة، وتمثل إشكاليّة البحث عبر مقاربة نصّيّة تطبيقيّة، وتحليلها فنّيّاً وموضوعيًّا، لبيان اشتغالاتها الدّلاليّة والرّؤيويّة في المتشكّل النّصّيّ.

اقتضت إشكاليّة البحث؛ المقاربة النّصّيّة للنّتاج الأدبيّ فنّيّا وفكريّا في صياغات جماليّة متنوّعة بوساطة تتبّع ذلك الاشتغال في مستواه الدّلاليّ والجماليّ داخل خطاب (الدّيستوبيا السّاخرة)، عبر الاختيار القصدي لكتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) أنموذجًا، بما يتوافق مع طروحات البحث النّظريّة، ومن هنا تنحصر الخطّة في مبحثين، جاء الأوّل بعنوان: (الدّيستوبيا السّاخرة بين المصطلح والتّفسير)، يؤطّر للمفاهيم المستخدمة اصطلاحيًّا وإجرائيًّا، وقيمتها الفنّيّة والفكريّة في ضوء المقاربة الثّقافيّة، ويقدّم للقارئ المفاتيح النّظريّة التي ينهض عليها، أما المبحث الثّاني فقد تناول (تمثّلات الدّيستوبيا السّاخرة في الأدب) واشتغالاتها الفكريّة والدّلاليّة والجماليّة في الإبداع النّصّيّ، وتطبيقاتها على كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) أنموذجاً.

المبحث الأول: الديستوبيا الساخرة بين المصطلح والتفسير

انتشر مصطلح الدّيستوبيا (Dystopia) في الكتابات الأدبيّة الحديثة على نحو خاصّ في القرن العشرين، وألقت بظلالها على عالم تخيّليّ يتحوّل فيه الحلم بالمدينة الفاضلة والعالم الأمثل

إلى كابوس المدينة الفاسدة، أو المكان الخبيث المظلم المملوء بالفساد والخراب والوحشيّة وكل ما يحقّق انتفاء الجمال والسّعادة والخير للإنسان، وهذه التّصوّرات للمجتمعات على اختلاف سماتها يديرها العقل البشريّ منذ العصور القديمة وليست وليدة العصر الحديث بل مقترنة بالوجود الإنسانيّ، ويشير المصطلح في أصله اليونانيّ إلى المكان الخبيث الفاسد على نقيض اليوتوبيا، فهي اليوتيوبيات المضادّة الّتي تصف الحياة في مجتمع أفسدته المظاهر المادّيّة وعصفت به النّزاعات السّياسيّة والاجتماعيّة والسّلبيّة، فتلاشت القيم النّبيلة للإنسان أمام عوامل الجشع والانحلال (البحيري، ٢٠٢١، ص٢٠٠)، فتجرّد من إنسانيّته نحو الضّياع والاندثار والرّذيلة، معرّية القضايا السّياسيّة أو الاجتماعيّة أو الدّينيّة أو الفلسفيّة، واشية بملامح الانحطاط الكارثيّ في المجتمع.

ورغم البدايات الأولى والقديمة العهد حول خطاب (اليوتوبيا) الإيجابيّ في البيئات الأدبيّة، إلا أن الأدب الدّيستوبي العربيّ الحديث في القرن الحادي والعشرين له حضور آخر، وأصبح هاجساً مركزيّاً في الحقول الأدبيّة وفق رؤية العالم، يكسر صورة (المحاكاة) التّقليديّة، ويطلق العَنان للخيال وفق رؤية خالد سعيد "إن الحداثة إعادة نظر في المرجعيّات والقيم، والمعايير وهي رؤيا جديدة تعبّر عن المقلق والعجائبيّ والمثير من جهة، وهي تجديد للّغة، وتحرير للمخيّلة، وتجاوز للحدود الوهميّة الّتي تفصل الواقع عن اللّاواقع من جهة أخرى"(سعيد، ٢٠٠٦، ع٣، ص٣٢)، ولعلّ الواقع المرير الذي يلقي بظلاله على المجتمع العربيّ من ثورات ونكبات وانتفاضات وحروب متتالية وما تخلّله من قمع واستبداد وغيّاب للحرّيّات والحقوق وانتهاكات لحقوق الإنسان، دال على تحولات فارقة في التركيبة السّوسيوثقافيّة؛ فاستحالت الأحلام (اليوتيوبيّة) شيئاً فشيئاً إلى واقع فاسد، ومع تصاعد الأحداث السّياسيّة والانهيار المجتمعيّ والقمع الشّمولي في المنطقة العربيّة بدأ يؤثر بشكل أو بآخر في بناء عالم الدّيستوبيا الأدبيّ في العديد من أنحاء الوطن العربي واقترب أن يصبح ظاهرة أدبيّة.

وغالبا الأدب الدّيستوبي (أدب الواقع المرير) يصوّر مجتمعاً خيالياً مخيفاً، غير مرغوب فيه، تسوده الفوضى، ومن أبرز ملامحه القتل والخراب والتّدمير والفقر والمرض، وتتنوع عناصر الدّيستوبيا في القضايا السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وحتّى البيئيّة (برجكاني، ٢٠١٨، ص١٣٦)، فانخرطت مادّة هذا الخطاب بالواقع؛ لتحوّلات في نمط الوجود، ومنظومة القيّم، واستفحال الفساد، وارتبطت بالأحداث المظلمة التي تنبئ عن الخراب واليباب، أي بمنظومة الأفكار السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والفلسفيّة التي تتعلّق بالحياة الاجتماعيّة (الوعي الأيديولوجيّ).

ونظرًا للبعد الأيديولوجيّ للأدب الدّيستوبي وتداعياته الثّقافيّة قدّم أدباؤه نتاجاً ينطوي تحته بعدين: أحدهما فكريّ، وآخر جماليّ، الأوّل مصرّح بالصّراعات الحضاريّة التي تشهدها المنطقة العربيّة والغربيّة على حدّ سواء، والثّاني الجماليّ يعرض لسيناريو متخيّل وفق أسلوب المضمر والمعلن المؤدلج لفكرة السّلطة والهيمنة، بما يعكس" الواقع المرير والحقائق الاجتماعيّة والسّياسيّة الحاليّة، ويستنتج أسوأ الاحتمالات والسيناريوهات كتحذيرات من التّغيير المجتمعيّ أو كحذر أساسيّ وعادة ما تعكس القصص غير اللّائقة مخاوف الثّقافة الشّعبيّة اليوم"(علي، ٢٠٢٢، ع٤، ص٢٢١)، بسياق ثقافيّ يتماهى الواقع بالخيال بتجسّد نصّي يزاوج بين الرّؤيويّة والفنّيّة، يستمدّ شرعيّته من المدينة كفكرة متعدّدة المرجعيّات والغايات، بوصفها خطاباً سيموطيقياً تراكميًّا، تنغمس فيها عدّة خطابات بحكم أنّها نصّ ثقافيّ، قابل للتّحليل والتّأويل لتحديد تمثّلاتها النّصّيّة من خلال تحديد هويّتها ضمن الخطاب الإبداعيّ الذي أنتجها، ويعكس حضورها وتجلّياتها، "بمعنى إن الدلالة متجددة ومنفتحة على أفق معرفي بحسب مرجعيات كل قارئ وثقافته"(مراشدة، ٢٠٢٢، ص١٧٣).

ويمكن التّمعّن في الدّيستوبيا ذات الأصول الأدبيّة والجذور الثّقافيّة العميقة لنجد أنّها تنبع من وعي وقصديّة لدى المبدع الثّقف ليعبّر عن إحساسه بالخذلان التّام؛ ممّا يدفعه إلى تصوير الجانب المظلم من الحياة التّخييليّة والسّوسيولوجيا المنهارة وفق رؤية استشرافيّة بالمستقبل في المقام الأوّل وتتبّأ بمجرياته، فيصبح هذا الجنس الأدبيّ "رؤية للعالم ونمطاً للتّفكير"(غربي، ٢٠٢٣، ص٤٢٨)، تتماهى مآلاته مع المدلول الظّاهر، لكنّه يندرج تحت الخيال العلميّ أو أدب نهاية العالم، باعتباره مزيجاً من التّخييل و"الرّومانسيّة والعلم والتّنبّؤ"(سِيد، ٢٠١٧، ص٧)، تتقاطع في عوالمه عدّة أنواع أدبيّة وعلميّة، تتخرط بما تحمله من تقنيّات مشحونة خلّفها تراجع اليقين إثر تراجع قيمة الإنسانيّة، وجعل الإنسان هدفاً للقهر، والاستلاب نتيجة القمع السّياسيّ، أو بسبب تحوّله إلى فأر تجارِب يجري عليه أصحاب السّلطة، والنّفوذ تجاربهم العلميّة، أو الحربيّة، (لالاند، ٢٠٠١، ص٣٦١)، حيث اختفاء الفروق الواضحة بين المدينة والنّظام والأحياء ومجتمعاتهم في عرض أدب الدّيستوبيا وهو وسيط محوريّ جمع الإشارات والمتغيرات في" المدينة الفاضلة الّتي تعاني خللًا وظيفيًّا"(سِيد، ٢٠١٧، ص٧٤).

واستثمر الأدباء في تلك المساءلة الثّقافيّة السّخرية التي تحمل دلالة مزدوجة من المنظور الثّقافيّ؛ إذ استدعت بعض إبداعاتهم الأدبيّة أسلوب السّخريّة في بنائها دلاليّاً وفنّيّاً، والّتي تمثّل" نوعاً من التّأليف الأدبي أو الخطاب الثّقافيّ، الّذي يقوم على أساس انتقاد الرّذائل والنّقائص الإنسانيّة، الفرديّة

منها والجمعيّة"(شاكر، ٢٠٠٣، ص٥٣)، ينضوي على وسائل لغويّة وبنائيّة متوازية مع السّياقات الأيديولوجيّة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والنّفسيّة لمنتج الخطاب، لزعزعة استقرار الممارسات الاجتماعيّة، وتحفيز المتلقّي من خلال" التّهكم في كشف أنماط مختلفة من السّلوك الإنسانيّ، وبخاصة تلك السّيّئة واللّامقبولة، من هنا كانت السّخريّة في مواجهة الواقع دون أن يصل الأديب إلى درجة الصّدام معه"(شحادة، ٢٠٠٩، ص٨)، لبعدها عن التّهمة والمساءلة، وعمق إقناعها بلغة ماتعة، وأثرها الخالد فكريّاً ورؤيويّاً المترسّخ في المتجسّد النّصّيّ، محقّقاً الانخراط المجتمعيّ ضمن حالة من الانسجام والتّجانس و" توّحد صفّ الجماعة الواحدة وتجعلها في موقف مشترك إزاء العدوّ المشترك"(حفني، ١٩٨٧، ص١٧) الذي وقعت عليه السّخرية.

فتنشأ علاقة مقابلة بين القضايا الدّيستوبيّة المتماهيّة مع الواقع، والخطاب السّاخر الرّافض لها، و"هكذا ينبني الخطاب على إصدار حكم لنسقه بطريقة غير مباشرة، ودون أن يبدر من المتكلّم ما يدلّ صراحة على معارضته لذلك الحكم، لكن موقفه يستشف من السّياق والظّروف الحافلة بالخطاب"(العجمي، ١٩٩٨، ص١٠)، فلا تصدح السّخرية بذاتها وإنّما تومئ عن نفسها للقارئ إيماءً في البنية النّصّيّة بصياغة رمزيّة" توجع وتنبّه إلى المفارقات والخلل والانكشاف"(الجمري، ٢٠١٤)، لذلك تحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من دقّة الملاحظة والذّكاء والفطنة والثّقافة الغزيرة، والخبرة الواسعة في أحوال النّاس وقضاياهم الاجتماعيّة والسّياسيّة، كما وعُدت السّخرية من أخطر أغراض الأدب العربيّ شعره ونثره، "معالجة وممارسة وتأليفًا، منذ أمد بعيد" (طه، ١٩٨٧، ص٣)، نظرًا لأنّه يمثّل ردّ الإنسان الأعظم على معاكسة القدر، وظلم الدّهر، وقسوة الطّبيعة، وعيوب المجتمع، ونقائص النّاس، ونقائصه هو، يسخر بهذه جميعاً، لا يسبّها، ولا يحتدّ عليها، ولا يثور بها، بل يتأمّلها بهدوء، ويبصر سخافتها، ويبصر تناقضها، بل يبصر تفاهتها وصغرها، فيعلو عليها جميعاً، ويتحدّث عنها بابتسامة هادئة، جليلة، مستخفّة، هازئة، وحديثة ينبغي ألّا يكون محتدّاً ثائراً، وألّا يكون سيئاً ونمطاً بذيئًا، وإلّا لما كان سخراً، فالسّخر هو الهدوء التّامّ والأدب التّامّ، والعلوّ التّام عن مصائب الدّنيا، (النويهي، ١٩٤٩، ص٣٣٣)، إلّا أنّها تكتسب بعدًا دفاعيًا فتتبّه عوامل المقاومة والثّورة، وتثير الرّغبة في تجاوز ثغراتها والانتصار عليها، وتحقيق أهدافها بلغة محتالة مناورة، تتشد التّأثير والإقناع في طرحها بكل لطف ودقّة، تدخل ضمن لغة النّقد الهادف إلى التّقويم، وتغيير الواقع المرفوض، وإصلاح المجتمع، بشكل ساخر.

وحسبّ استقرائنا للظّاهرة فإن بحث الإنسان وسعيه الجادّ لتجاوز الأزمات الاجتماعيّة والنّفسيّة والاقتصاديّة يدخل في صُلْب مقاومته للفناء وفلسفة الوجود؛ لذا فهو يسعى إلى استعادة توازنه ليستطيع

الاستمرار، عن طريق الانخراط الواعي والمسؤول للفرد في المجتمع، والتّماهي مع العقبات والأزمات، ومحاولة اتّخاذ إستراتيجيّات دفاعيّة عن طريق الخطابات المقاومة كاستجابة ملتوية أو مباشرة للأحداث الّتي يعيشها، باعتبارها احتجاجاً له دور المقوّم الاجتماعيّ للتّصحيح والتّعديل.

يقودنا وهذا إلى الإشارة أن الخطاب السّاخر يتقاطع مع الدّيستوبيا في البعد الدّلاليّ الّذي "يتأسّس بين المدلول المجازيّ، والمدلول الحقيقيّ، وهذا الفضاء من شأنه أن يلغي الوجود الوحيد للامتداد الخطّيّ للخطاب"(الحمدانيّ، ٢٠٠٠، ص٦١)؛ إذ يستند إلى ثنائيّة المعنى الموارب، حيث العلاقة بين المعنى الحرفيّ الظّاهر والمعنى المشتقّ المضمر، مرتبط بذات المبدع ورؤيويته وتوجّهاته الفكريّة والنّفسيّة وبثقافته الاجتماعيّة؛ فتلاشت في حضورها وسطوتها إشكالات تماهي الخطاب الدّيستوبي واستدعاء الأسلوب السّاخر مع المرجعيّات الثّقافيّة مروراً بالبوح الدّلاليّ والشّكل البلاغي، والمعنى المواري، إلّا أنّ كليهما (الدّيستوبيا والسّخرية) مصدران ملهمان للعمليّة الإبداعيّة، والدّافع وراءهما المتلقّي ضمن نظريّة القراءة.

إذ تبرز مكانة الدّيستوبيا في المناهج النّقديّة الحديثة بوضع النّصّ في سياقه الثّقافي والدّلاليّ لأنّنا "عندما نتحدّث عن المرجعيّة فنحن نتحدث عن كيانات معرفيّة مؤطّرة، تمنح الخطاب انتسابه إلى المعرفة، وتخصّص موقعه فيها وقدرته على توظيفها"(الدقاري، ٢٠٠٧). والوظيفة الثّقافيّة لا تتنافى مع الوظيفة الأساسيّة المزدوجة وإنّما تتقاطع في الفضاء النّصّيّ، حيث تجمع بين الثقافيّة والجماليّة الفنّيّة في آن واحد، وهذا التّماسّ يغيّب المكاشفة الذّاتيّة، وتدفع الكاتب إلى تحوير الأحداث على المستويين الظّاهر والباطن والسّطحيّ والعميق.

وبهذا التّوسّع نلحظ أنّ الانخراط المفاهيميّ والأسلوبيّ والدّلاليّ بين الدّيستوبيا والسّخرية نقل للمتلقّي التّناقض الصّارخ والمفارقة العظيمة بين ما يتوقّع أن يكون عليه العالم المثاليّ، والصّورة المقدّمة في المتجسّد النّصّي، وفي هذا إشارة ضمنيّة للمفارقة، "تتضمّن قوة هائلة في التّأثير النّفسيّ والاجتماعّي، كوّن السّخرية تبلغ من قوة التّأثير أن تنتصر على العادات والتّقاليد"(حنفي، ١٩٩٢، ص٢٣)؛ إذ يستخدم المفارقة بين المعنى الظّاهر والمعنى المراد للتّأثير في المتلقّي بصورة بلاغيّة وقالب هزليّ وتمويه معنويّ.

فاستطاع الانزياح الدّلاليّ والإسلوبيّ الذي قوامه التّقابل أن يراعي عقل المتلقّي، بالانحراف عمّا هو مألوف دلاليًّا وتركيبيًّا، ليقنعه "بطرق تدليسيّة وتمويهيّة وتغليطيّة"(الباهي، ٢٠١٠، ص٢٥٦)

محدثًا تواصلًا فكريًا بين المتلقّي والكاتب، من خلال التّأمّل المستفيض لدلالات الأنساق، ممّا يسهم في تعرية "التّركيب الضّدّيّ للعالم والجدليّة التي تتخلّله، تصبح منطلقًا لوعي نقديّ أعمق، لا يكتفي في الظّواهر السّطحيّة، بل يغوص على بنيتها الضّديّة ليجلو الفاعليّات التي تتراشق فيها، وتشعّ عبرها، ملتحمة منفصلة في حركة دائبة"(أبو ديب، ١٩٨٤، ص١٠)، فأصبحت الدّيستوبيا ظاهرةً بارزةً في النّصوص الأدبيّة، المشحونة بالمرجعيّات، والمكثّفة بالصّراعات التي تخترق البنية النّصّيّة، بما يتطلب عدّة منهجيّة لاستبطان المضمون الفكريّ والثّقافيّ في ثناياها، ذلك أن النّسق "يتحرّك في حبكة متقنة في النّصّ، ولذا؛ فهو خفيّ ومضمر وقادر على الاختفاء دائماً"(الغذامي، ٢٠٠٢، ص٧٩).

وهذا التّصوّر يرى أن الدّيستوبيا السّاخرة يمكن الوقوف عليها كأيّ من وحدات النّسق الثقافيّ، التي تمتلك بالضّرورة بنية دلاليّة وسياقيّة ترتكز إليها، لا بدّ من تقصّي شبكة العلاقات التي تتبعث منهما، والدّلالات والرّؤى التي تنبثق عنهما، ولا سيّما في المشاركة التّأويليّة الفاعلة للمتلقّي، كما وأنّها أكثر إثارة من الخطاب الشّفيف، تبعاً للإبهام والغموض الّذي تتداخل فيه السّياقات النّصّيّة في مقابل السّياقات الثّقافيّة الأيديولوجيّة والسّوسيولوجيّة في المنظومة المجتمعيّة، المسندة صلاحيّاتها إلى المتلقّي، لخلق الاشتباك، وفكّ الإبهام، وتحليل الشّفرات النّصّيّة، وخلق التّوازن والتّناغم، بحيث يرتبط جهدهم بمفاهيم السّيميولوجيا والعلاقة الثّنائيّة بين (علم الدّلالة والمدلول) عند(سوسير)، وصولاً إلى (غريماس) و (ولوتمان) و (كريستفيا)، ليخترق الدّال ومعه الذّات المبدعة، والتنظيم البنيويّ للخطاب، للوصول إلى البؤرة النّصّيّة، عبر إستراتيجيّة تواصليّة وإحاليّة تفتح الآفاق في استقصاء العلاقة بين التّجربة الإبداعيّة والأنساق الثّقافيّة والاجتماعيّة خارج الأدبيّة، بوصفه أنموذجاً ممثّلاً للوعي الجماعيّ، " فالذّات مفهوم مركزي في الدّراسات الثّقافيّة والأنثروبولوجية على اعتبار أنّها ذات جمعيّة تتلخّص فيها منظومة من العلاقات الاجتماعيّة، والقيم والرّؤى والتّصوّرات، تشكّل نسقاً يخضع له الجميع ممن ينضوي تحت طائلة ثقافة معيّنة"(أبو حسون، ٢٠١٦، ص٦٤).

المبحث الثاني: تمثلات الدّيستوبيا الساخرة في الأدب

يأتي العمل الإبداعي على اختلاف مشاربه المعرفيّة والأيديولوجيّة والسوسيولوجيّة، مشروعاً فِكْرِيًّا نَهْضَوِيًّا، يستبطن بنية الأنساق الثّقافيّة، وعليه تلاقف علماء النّقد والأدب والفلسفة والأيديولوجيا والسّوسيولوجيا والأنثربولوجيا الثّقافيّة والنّظريّات السّياسيّة مصطلح (الدّيستوبيا) الشّائع داخل العلوم الاجتماعيّة، انطلاقاً من اهتمامه بعلم الإنسان الثّقافي، مشتملًا على كافّة نواحي

السّلوك الإنسانيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ والحضاريّ، واستنادها إلى البنية الأيديولوجيّة والأنثربولوجيّة والثّقافيّة، والإلزاميّتها لأفرادها، شكّلت فضاءً فكريًّا رحبًا مليئًا بالقرائن والعلامات اللسانيّة والإيحائيّة، انسحب على الأعمال الإبداعيّة، وتمّ تداوله في الدّراسات الأدبيّة، واحتلّ مكانة مميزة في الأدب والنّقد على حدّ سواء، متجاوزاً أصوله الغربيّة منخرطاً في السّاحة الأدبيّة والنّقديّة العربيّة، ومقابل ذلك على مستوى النّشاط الإبداعيّ، حاورت الظّواهر الحياتيّة وانعكاساتها في صورة ذهنيّة، محاكية العالم الخارجيّ بالوعي الدّاخليّ، فتداعيّات مخزون الذّاكرة والتّجربة الشّعوريّة أنتج سياقات نصّيّة عدّة بمعطيات واقعيّة تجسيدًا للأنساق الاجتماعيّة والثّقافيّة المنصهرة في الأنساق الفنّيّة، بوصفها مرتكزات قيميّة تفتّحت دلالاتها في المضمر والمعلن الثّقافيّ.

إلا أنّني أجد ظاهرة جنوح الأدب إلى ثيمة الدّيستوبيا إشكاليّة أيديولوجيّة" تلعب دوراً مهما في إعادة تعريف الحقائق المتغيّرة وفي زعزعة الثّقة بالثّوابت، مما يقضي إلى تعرية صيرورة الحقائق وتحيّزاتها"(الرويلي، والبازعي، ٢٠٠٣، ص٢٢٨) الّتي استقاها من الوعي الذّاتيّ بالقيود القيميّة والوجوديّة، ولذلك ارتبط الخطاب بالاضطراب الفكريّ والثّوريّ لتغيير ثوابته، لأجل بناء مستقبل أفضل للبشريّة، لذلك شكّل الخطاب ثورة اجتماعيّة لكلّ منطلقاتها الثّقافيّة المنخرطة ضمن المنظومة البنيويّة، تحمل في ثناياها سلطة الذّات المبدعة المنصهرة في الرّؤية الجمعيّة.

إن هذا التّوجّه الّذي سار عليه الأدباء أصبح البؤرة المركزيّة في نزوع بنيتهم النّصّيّة إلى التّابوهات الاجتماعيّة والسّياسيّة والدّينيّة، واختراق مدنّسات المنظومة الاجتماعيّة تحت غطاء ساخر موارٍ، يحاكي التّجربة الاجتماعيّة والسّياسيّة وطروحات الواقع الثّقافيّ، ووفق هذه المؤشّرات اختارت الباحثة عيّنة البحث الممثّلة (للدّيستوبيا السّاخر) مفهمة واشتغالًا؛ إذ تبدّت تمثلاتها في كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) للكاتب الأردنّيّ (وليد معابرة)، الصّادر عن دار المشكاة للنّشر والتّوزيع ٢٠٢٠م، فهو نصّ خليق أن يُدرس لما تضمّنته متونه من صراع بين المنظومة الاجتماعيّة والسّياسية والدّينيّة والأنساق الأيديولوجيّة التي تسكن الذّات المبدعة، إلا أنَّ الفجوة الفكريّة وتغلغلها إثر التّصدّع الاجتماعي في الوعي الباطن؛ تحوّلت إلى سلوكات مضادّة لفعل الاغتراب قادرة على مواجهة الانهيارات المجتمعيّة عبر صيغ معرفيّة حديثة تهشّم مركزيّتها عن طريق البنية النّصّيّة والأنساق الثّقافيّة لتبنّي التّشكيك في الواقع الاجتماعيّ والإنسانيّ والاقتصادي، ومحاولة تفكيكه والعمل على إزاحته، بما يزعزع الثّوابت الرّاسخة في الوعي الجماعيّ، ومحاولة

الخلاص من هيمنتها المجتمعيّة، مستدعياً أدوات معرفيّة وتقنيّة أحدها الدّيستوبيا السّاخرة ومخبؤها المواري، ومرجعيّاتها المعرفيّة التي تمظهرت في أحداث ووقائع ثقافيّة، والتي وظّفها في إنتاج متشكّله النّصّيّ والدّلاليّ للوشي بالأيديولوجيا والسّوسيولوجيا الثّقافيّة التي تتقاطع مع الانتهاك الثّقافيّ للآخر، ومنحها أعلى درجة من الإثارة والتّأثير في المتلقّي.

يكشف الكاتب (وليد معابرة) في تجربته الإبداعيّة عن وعي عميق لمفهوم (الدّيستوبيا السّاخرة) والحاجة إليه، انطلاقًا من تبنّي مفهوم (الالتزام) وفق جدليّة الذّات الإنسانيّة وصراعاتها مع الآخر، بما ينسجم مع خطاب السّلطة، فقد توافرت لديه حصيلة واسعة من القراءة العميقة والوعي لمعادلة القوّة والقدرة في السّيطرة على الأمم والشّعوب، الّتي مكّنته من امتلاك مادّة أدبيّة فيها عمق فكريّ ونفسيّ، يتفاعل مع البنية النّصّيّة والدّلاليّة في عمليّة نفسيّة تندمج مع التّجربة الشّعوريّة، والّذي مثّل إعادة إنتاج لشكل الانتماءات الثّقافيّة المتوافقة ودواعي العصر الجديد وأزماته وأحداثه المتلاحقة، وجسّدت اغتراب الإنسان وشتاته بين ذلك، متخذاً مكانة تواصليّة جماعيّة ضمن القيّم الانطباعيّة والإقناعيّة متجاوزاً فرديّة الرؤى وإدخالها ضمن المجازات اللّفظية للنّفاذ والاندماج والتّماهي؛ ممّا يخوّلها الولوج في المجال البلاغيّ لتعرية هذا العالم المليء بالمتناقضات، وهو ما ترنو إليه اللّغة الإبداعيّة الحديثة، "في تشكيل معطيات الواقع الّذي يعيش به، في ظلّ مخطّط أخلاقيّ، ينقل المبدع ومحتواه القيميّ نقلًا تخيّليّاً إلى المتلقّي كي يحدث فيها آثاراً متميّزة، فتغدو المحاكاة نتاجاً لإدراك ذاتيّ، (عصفور، ٢٠٠٣، ص٢٤٠).

فحلّت الدّيستوبيا السّاخرة ومشتقّاتها، وهيّأت مزاياها إمكانيّة التّوغّل والتّداول للظواهر السّياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة والأخلاقيّة وتشكيلاتها التّابويّة في صيغ جديدة اكتسبت حضوراً سلطويّاً قادرا على مواجهة الثّقافة المجتمعيّة بالتّحريض على التّفكير، لما تحوزه من ازدواجيّة في المعنى والانسجام بين الدّال ومدلوله، بفعل عمليّات المقابلة والمفارقة غير المتكافئة التي تتقنها في خطابها، والّتي لا تؤتمن إلّا بسبر أغوارها وفكّ شيفراتها اللّغويّة والبلاغيّة والتّصويريّة والدّلاليّة المحاكيّة للحالة الشّعوريّة من خلال جملة من الإشكالات والاشتغالات، الّتي يقف عليها البحث ضمن ثلاثة محاور رئيسة:

١. **<u>الاجتماعيّ</u>**

يعدّ الخطاب الدّيستوبي الاجتماعيّ السّاخر نمطاً من أنماط الخطاب الثّائر حيّال المشاكل المقلقة التي تطال الإنسان والمجتمع بل منهج الحياة بشقّيه الثّابت والمتغيّر على السّواء، "إلّا أنّ وراء هذا الخلل الظّاهريّ خللًا باطنيًّا يهدّد جوهر العالم، فهي لا تتّحد في نقد الظّواهر والعادات والتّقاليد، وإنّما

تشكّ في الإنسان ذاته، وفي النّظام العام الذي يسير العالم"(أدونيس، ١٩٩٧، ص٤٠)، فيكشف (وليد معابرة) عن تمزّق عميق في بنية المجتمع والإنسان، وقد تأثّر بالمتغيّرات التّاريخيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، فيستقي مادّته من الأحداث الإنسانيّة والاجتماعيّة المؤثّرة التي تحيط به على المستوى الوطنيّ والعربيّ، متّخذاً منها منطلقًا وبذرة أوّليّة تتداخل ورؤيته وأيديولوجياتّه بسيّاق خياليّ إلى حدّ التّمازج يطرحها في خطابه، وذلك بسياق ساخر لاستحداث صياغات تشكيليّة ذات مستويات متقدّمة من التّأويل العقليّ، والتّعدّديّة الدّلاليّة والرّمزيّة، وبهذا ينطلق النّصّ من تصوير عوالم الواقع الإنسانيّ اللّامعقول، عن طريق التّعبير عن أزمات الأفراد ومعاناتهم من القيود الاجتماعيّة، بوصفها مؤثّرات مباشرة أسهمت في حالة التّحوّل لسلوك الفرد والمجتمع، فرصد حركة الواقع ومستوياته القيميّة عبر الفضاء النّصّيّ؛ إذ يطالعنا بعلّة أيديولوجيّة وعمل على قولبتها بخطاب مقالي عنوانه" هو طويل العمر يدري؟!"(معابرة، ٢٠٢٠ ص٤١)، وهذا الملفوظ يحرّك آليّة الوعي القائم بالنّسبة للقيادات المتربّعة على رأس الهرم الاجتماعيّ والّتي تتّسم بالفساد، وهذه الفئة التي رمز لها بلفظ (طال عمره) يحمل التّضخيم لذّات الحاكمة لتصبح خارقة وبعيدة عن الطّبيعة البشريّة تقترب من القدسيّة، يخلق مشهداً مؤثّراً في الذّاكرة الجمعيّة، يفرض على الآخرين الطّاعة والخنوع والانسياق حدّ العبوديّة، ويحمل مفارقة ساخرة بين رمز البطل المحوريّ والقائد المثال والمضمون المنحط والفساد والاستغلال، عرّت الانتكاسات الاجتماعيّة بين طبقة متحكّمة في مقاليد الحكم العرفيّ تتّصف بالفساد والتّخاذل والتّجاهل، تنشد المصلحة الخاصّة، وطبقة كادحة ساذجة منقادة وخانعة مسلوبة الفكر والإرادة، تمخّض عن هذا التّصادم السّاخر والنّقد اللاذع نسف للمشروع السّلطوي وقيم الفساد لمنتسبيه وكذلك رفض كلّ سبل التّبعيّة والرّضوخ والانقياد الأعمى للسّلطة، وضرورة الوعي الاجتماعيّ والقيميّ وعدم التّواطؤ مع قيم الاستغلال والاستهلاك وتبعيّاتها للسّلطة الفاشلة والفاسدة الّتي احتكرت مقاليد الحكم.

وتمظهرت الدّيستوبيا بمحاكاة المعاناة بألفاظ هازلة عبر شكل جماليّ ورمزيّ أفصح عن الوضعيّة المقلقة التي ألمّت بشرائح كبيرة من المجتمع العربيّ، ولا سيّما الانحطاط والاشمئزاز من الوضع الاجتماعيّ المزري المنخرط في الفساد الّذي بلغ أوجه في العتبة النّصّيّة العلويّة (العنوان) للمقال، ليعرّي واقع المجتمع الأليم، ويبوح بحالة تشظّي المجتمع، الّتي ضاعفت من محنته، سببها انحطاط المجتمع وتواطؤ وعيه مع وعي الطّبقة الحاكمة والفئة المستبدّة، إلا أنّ في ظلّ ذلك

التّصدّع في المنظومة القيميّة، تطلّ الذّات بانكساراتها وتشظيّاتها النّفسيَّة متوارية خلف شخصيّة البطل الاستثنائيّ (المعلّم) رمز الفئة المثقّفة والمسحوقة –على شاكلته– التي تنشد الحرّيّة وتحلم بالإصلاح القيميّ، لتمثّل معادلاً موضوعيًّاً لذّات المبدعة، فانطلق المعلّم يحقّق مسعاه النّبيل، مصرًّاً على استلهام واستخلاص الشّخصيّات المقدّسة والنّبيلة من عقول تلاميذه، بالانسحاب إلى تاريخ الأمّة، واستدراج عقول الطّلبة إلى نكباتها الجسام واستقالتها من مهامّها، والتّفريط العربيّ في مقدّساتها، وبعدّ طول محاورة ومناورة لإحياء القيم الاجتماعيّة الرّفيعة في مجتمع يخلو منها؛ إذ يعيش مفارقة البطل الإشكاليّ الّذي يكافح من أجل إحلال قيم الذّات ورؤاها في عالم الواقع المرير، وأفرز الصّدام المحتدم عن انحطاط هذه الفئة المسحوقة في مشهد قابل للتّأويل، يقول: "التّلميذ استأنف حديثه قائلًا: لو كان طويل العمر يدري، لخلصنا من اليهود وشرورهم!....عندها خيّم الصّمت على ذلك المعلّم، واعتلى محيّاه المقت والقهر، فقرّر أن يستبدل حصص التّاريخ بالرّياضة والتّرفيّه، بعد أن أعلن انسحابه من التّاريخ واستقالته من مهامّه...، ومن ذلك الوقت؛ استبدلت الأرض بكرة مطّاطيّة، وبدأت الحروب القبليّة، لتزداد الكسور العشريّة، حتّى فتئ خليجنا بأكمله تحميه يد أمريكيّة.(معابرة، ٢٠٢٠، ص٤٣)

وعلى وقع السّياقات الاجتماعيّة المقاومة، عمد الخطاب إلى اختراق مستقبليّة الأحداث وفق رؤية عميقة، ليخرج من دائرة الواقع المألوف إلى استشراف أحداث خياليّة صادمة ثقافيًّاً تحتاج إلى قارئ ثقف لتكثيف الدّلالة، وتعميق الفكرة ومنحها حرّيّة أكبر للاستحواذ الذّهنيّ، تسيطر عليها سوداويّة واضحة تعتصرها الويلات ترتسم صورة المأساة الحقيقيّة، للتّحذير من الانهيارات الّتي تحدث في بنية المنظومة المجتمعيّة العربيّة، باستحضار المستقبل من قلب الظّلام؛ إذ ينسلّ من واقعه المعيش المستسلم إلى القيمة الدّلاليّة للرّمز المحاكى، فيكسر الصّورة النّمطيّة، وأفق المتلقّي معاً في محاولته تعميق الأحداث والتّحوّل في الموقف الّذي تبنّاه (المعلّم) الرّمز من كونه مناضلاً وثائراً ضدّ التّبعيّة والانقياد والتّواطؤ مع أيديولوجيا السّلطة والاستغلال، إلى شخصيّة سلبيّة مستسلمة وفاقدة للأمل ولامنتميّة، وهو مؤشّر أسلوبي يبرّر العلائقيّة الارتباطيّة مع المنظومة الاجتماعيّة؛ إذ ساهم الشّعور بالقهر المجتمعيّ إلى تبديد الإرادة والشّغف والهدف، وكان لهذا التّخلّي الأثر الواضح على الفضاء الدّيستوبي الذي يشعّ لامبالاة للقضايا الاجتماعيّة العربيّة، ومغالاة تجاه القضايا الترفيهيّة، وتطرّفاً لخدمة السّلطة المطلقة، بنظرة تشاؤميّة ساخرة تزول خلالها غرابة النّهايات بالانخراط في حيثيّات جغرافيّة وعلميّة وسيّاسيّة، والاتّكاء على مجريات أحداث واقعيّة، ثمّ تأتي التّنبّؤات بعد أزمة

طالت واستفحلت مخرجاتها، ناقوس خطر يدقّ لتنبيه الشّعوب والمجتمعات للتغيّرات المتسارعة في الأنساق الاجتماعيّة والسّياسيّة، ستكون نتائجها كارثيّة على الوطن العربي برمّته، لذلك أصبحت الثّورة على الفساد السّياديّ ضرورة يقع عبء حملها على الجميع، ومن هنا تأتي نقطة التّحوّل في حياتهم، لعلاج وتفادي ما لا يحمد عقباه.

ويطالعنا الاشتغال الدّيستوبي السّاخر بمرتكزة المتمرّد على التّكوين السّوسيوثقافي والأيديولوجي العربيّ المسيطر على البنية النّصّيّة الفكريّة، انطلاقاً من السّرد، إلى المفارقات الّتي تعكس حالة التّشظّي المسيطرة على الذّات المبدعة منذ أمد طويل، المتعالقة مع مظاهر السّلطة المجتمعيّة والسّياسيّة، سعياً إلى الحياة الوارفة بالحقّ والحرّيّة والعدالة في مقال معنون ب"الأرض بتتكلّم عربيّ"(معابرة، ٢٠٢٠، ص٣١)، يحيل المتلقّي في عتبة النّصّ العلويّة إلى الجذور الدّلاليّة للبنية اللّغويّة الّتي يتناص معها، فقصيدة "الأرض بتتكلّم عربيّ" للمؤلف "فؤاد حدّاد" هي ثورة ثقافيّة قوميّة عروبيّة، تسعى لاستعادة الهويّة على الأراضي المنهوبة والمحتلّة، استحضر التّناص في موضع إعلانه التّمرّد والثّورة على الواقع الاجتماعيّ العربيّ إثر معاناته القوميّة العربيّة من الظّلم والفساد والسّرقة والنّهب والهوان والإهانة والهزيمة وسلب الإرادة وضياع التّاريخ والحضارة والعدل والحكمة، ليثبت التّقاطع مع التّناص عوالم حيويّة تغني النّصّ وتثريه بما يتّفق مع الحالة المعرفيّة والشّعوريّة للكاتب.

وتتبدّى تلك الاعتلالات القيميّة المنصهر في لغة مثخنة بالأدلّة والمنطق لتعرية السّوسيوثقافيا العربيّة، الّتي تعلي من شأن القبليّة والعشائريّة، وتسعى لتأصيلها والامتنان لحيثيّاتها المهيمنة على المنظومة الاجتماعيّة، وفي ظلّ ذلك التّواصل النّفعيّ، تطلّ الذّات بانكساراتها وتشظيّاتها النّفسيَّة في الفضاء الّديستوبي، متوارية خلف التّاريخ تهرب بين ذكرياتها من حدة الوضع المتأزّم الّذي تعيشه في اللّحظة الآنية، بقوله:

"لن أتوارى عن ذكر قارئي التّاريخ وحالات النّدم الّتي تنتابهم حالما يستذكرون أنّ الدّول العربيّة الكبيرة قد قسّمت إلى دويلات تجمعها دار مكتوب على بابها: " جامعة الدّول العربيّة"، عندها سيدركون أنّهم ينتمون إلى أمّة لا تقرأ، وإذا قرأت لا تعي، وإذا وعت لا تعمل، وإذا عملت تقاعصت عن عملها، حتى فتأت أمّة سطحيّة لا تفكّر ولا تفكّر تاريخيًّا، وهذا ما دعاها إلى الاستسلام وسلوك طريق الاستهانة؛ فقبلت بالإهانة واستقالت من مهامّها فضعفت جسديًّا وانتحرت عقليًّا"(معابرة، ٢٠٢٩، ص٣٢)

ويطالنا اشتغال الدّيستوبيا السّاخرة المسيطر على البنية النّصّيّة، انطلاقًا من المفارقات الّتي تعصف بها، وتعكس حالة التّشرذم المتعالق مع مظاهر المنظومة المجتمعيّة والسّياسيّة، الّذي يسعى إلى تقويض الواقع ومقتضياته عبر تشظّي الزّمن وتبعثره في ثنايا البنية النّصّيّة، لتصبح المعاناة مصدراً للاغتراب النّفسيّ عن الحاضر العربيّ الذي يعانيه (معابرة)؛ لذلك اتّخذ من الماضي مركزيّة سلطويّة تمارس هيمنتها على ما حولها، وقدرتها على الوعي المجتمعيّ لمراوغة السّياق الواقعيّ، وتمثّل حاجزاً منيعاً عن الحاضر الدّيستوبي الّذي يعجّ بالجهل والتّقاعس والغربة والانعزال والإهانة، تأجّجت فيه مشاعر الغربة والضّياع واستحالت الحياة إلى موت ودمار، فقرّرت الذّات المبدعة المتماهية مع قارئ التّاريخ العليم الحكيم الهروب من قسوة هذا الزّمن الّذي ضاعت فيه القيم الإنسانيّة، وتهشّمت صورته إلى الماضي، بوصفها عزلة فردية تدعو إلى مغادرة المضامين الفكريّة الحديثة وإحداث القطيعة المجتمعية بدلائل موضوعية دفعت باتجاه شرعنة الإقصاء في خضمّ مفارقة تصويريّة ومقاربتها في خطاب يعيد قراءة التّاريخ بشخصيّاته وحوادثه ليس نسخاً واقعيّاً وإنّما محاكاته دلاليّاً. ومن أجل السّعي لتفكيك السّيطرة المجتمعيّة؛ سجّلت الذّات المبدعة تمزّقها في قوله:

"وإذا كنت في بلاد استنوق فيها الجمل واستأسد فيها الحمل وتكلّم فيها الرّويبضة؛ فاعلم أن الحرّيّة قد ماتت قتلًا في بقعة سوداء من الأرض"إلي بتتكلّم"عربيّ!.....أمّا إذا كنت مهزوماً ومبتئساً ومتّهماً بأنّك قاتل"البحر الميّت "في زمن النّكسة؛ فاعلم عزيزي القارئ أنّ القضاء قد مات قتلاً في بلاد شعارها: "الأرض بتتكلّم عربيّ".(معابرة، ٢٠٢٠، ص٣٥)

وبهذه المشاهد والمضامين الأيديولوجيّة بمساراتها المختلفة أرسى قواعد المجتمع الديستوبي، الأمر الّذي دفع إلى بناء علاقات مع الشّريك الاجتماعيّ الأكثر فاعليّة في الثّقافة المجتمعيّة، ولا سيّما الأمثال الشّعبيّة التي أسهمت في إلقاء الضّوء على فكرة الهيمنة وسطوتها الّتي دفعت الإنسان إلى النّكوص أمام سلطتها، المتفاعلة في ثنايا البناء النّصّيّ الّذي يكشف عن المعنى الواقعيّ الفاسد الذي تعصف به التّحولات الاجتماعيّة، والّتي كشفت عنها الإزاحة الاجتماعيّة في التّراث الشّعبيّ، ممّا دفع للقطيعة والإطاحة بنموذج التّواصل العاطفيّ والعقليّ للبشريّة، بعد أن اجتاحت المتغيّرات الحديثة، الّذي دفع إلى مواجهة المجتمع عن طريق إنكار الانغلاق الأيديولوجيّ والممارسات المشوّهة والعادات الفاسدة والأخلاق المذمومة الّتي تفكّك البنية المجتمعيّة وتفصل روابطها إلى سوء المآل، واستطاع أن ينأى بالعربيّة وأخلاقها وقيمها عن الآفات والمشكلات المزمنة المحصورة في المتكلّمين بلسان العربيّة دون تمثل مضمونها القيميّ بالانزياح اللفظيّ والمعنويّ بقوله "إلي بتتكلم عربي"، وقد

بدا متوافقاً مع مادّة السّخرية التي أسّس لها في مقاربة شكل حضورها إشارة بدت واضحة لحجم المعاناة النّفسيّة مع المجتمع الّتي تمثّلت بـ (قاتل البحر الميّت) بوصفها علامة على حضور السّلطة؛ إذ يحمل نداءً صارخاً وإشارات دالّة لتشكّل صورة التّوريّة الدّلاليّة، ويبلغ الإسهاب مداه في استعراض المفارقة المؤلمة الّتي أصابت البؤرة المركزيّة للنّصّ في مقتل، فاستحال (القاتل) الرّمز لصيق الغفلة والجهل والظّلم والخوف واليأس والهزيمة الإنسانيّة، ليكون قاتلاً أثما ينزف طوال عمره في هوّة القتل، وذلك بأبشع الممارسات والتّنكيل الّتي تستخدم في إبادة الإنسانيّة، ليس بضرب السّيف ولا إطلاق الرّصاص والقنابل ولا بالمشانق الّتي تنهي الوجود، وإنّما بقتل الإرادة والعزيمة والأمل والعدل والحرّيّة الّتي من شأنها انتكاس الفطرة والطّبع والبصيرة وفساد العقل؛ ليصبح الإنسان مقطوع النّفع، الحياة والموت عنده سيّان، لا يقوى على مساعدة نفسه ولا مجتمعه، فحال الإنسان مخجلة وأوضاعه مزرية من خلال المشهد الّذي برز فيه التّرابط المأساوي بين الانحرافات السّلوكيّة والأحداث التّاريخيّة والسّخرية الحكيمة من الواقع والإنسان، حيث ينتقي أصدق مشاهد التّاريخ إيلاماً، وأشدّها تأثيراً وخيبة (النّكسة) لتصل رسالته واضحة للجميع، برسم صورة تثير السّخريّة من مجتمعه الّذي لا ينصف مظلوماً ولا ينتصر لضعيف ولا يرد معتدياً، مجتمع ضعيف لا يملك دفع الضّرر عن نفسه، مقهور مغلوب على أمره، جبان يرضى بالذّلّ والهوان القسري، حتّى أنّ ممارسات المتسلّط طالت القضاء وعدله، فأصبح مظلّوماً ومقتولاً في البلاد الّتي تدّعي القيّم العربيّة.

فقد استمسك كتاب (أمّة تنسحب من التّاريخ) بالدّيستوبيا السّاخرة عموماً كملاذ تعبيريّ نقديّ، معرّضاً بالهلاك المحيط بالوطن العربيّ والإنسانيّة، تبلورت في توليفة من العناصر النّقديّة: السّخرية، المفارقة، والتّورية في التّركيب اللّغويّ، لخدمة رؤيويّة الكاتب وتوجّهاته الفكريّة التوعويّة، سعيا للتّغيّر والتّأثير في المتلقّي جماليّاً ودلاليّاً، في خطاب ينبع من الحاضر المؤلم ويستمرّ في رسم أحداث المستقبل في صورة خياليّة مبتكرة، استطاع الكاتب بذكائه الفذّ من إقناع القارئ بأهليّته لتحقيق الخير للإنسانيّة، فكان همّه تعرية المنظومة الاجتماعيّة بما فيها من مظاهر الدّيستوبيا: الظّلم والجهل والسّرقة والاستغلال والخوف والاغتراب والاستسلام والانهزام بعدما أصبح يمثّل انعكاساً متداخلاً لأحداث مستقبليّة سوداويّة، ممّا أسهم في تأزّم الذّات الإنسانيّة عبر المتغيّر العلائقي مع حيثيّات التّمزّق العميق في المنظومة الاجتماعيّة الّتي تشكّل فاعليّة بالغة ودعامة أساسيّة في المدينة الدّيستوبيّة، آخذا تمركزاتها في الوعي، ومخزونها المعرفيّ المتراكم، وتنامي أفقها الثّقافيّ، للارتقاء

بالمعادلة الدّاخليّة والخارجيّة في تكويناتها، عن طريق إدامة التّعاطي مع مركزيّاتها المحوريّة منطلقها التّضاد المركزيّ مع (اليوتوبيا) القارّة في فكر (معابرة)؛ فسعى إلى تحطيم الدّيستوبيا المحيطة ورفض مقوّماتها ومظاهرها ونتائجها عن طريق الإزاحة الفكريّة نحو المثاليّة المطلقة الّتي تتماهى فيه الذّات مع الآخر.

٢. **السّياسيّ**

ترتكز الدّيستوبيا السّاخرة على البعد السّياسيّ السّلطويّ في دائرة الحضارة العربيّة؛ إذ يمثّل الواقع السّياسيّ القائم، سواء كان بالاختيار أو بالإكراه، ولم يكن للفرد والمجتمع إلّا القبول به أو التّعايش معه، إذ تتماهى السّلطة مع كيانات الدّولة عامة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والاستثماريّة، بحيث تقوم بتأطير المجتمع وتنظيم عناصره، ولذلك فإنّ تفريط السّلطة في أحد عناصرها أو مقوّماتها الأساسيّة؛ يؤدي إلى ضياع الأسس والقواعد الّتي يقوم عليها هذا النّظام، ومن ثم الانفلات والضّياع وصولا إلى الانهيار، وتأسيس مجال سياسيّ حقيقيّ مبنيّ على مقتضى مجتمعها، يحكمه نمط البنية الفكريّة السّائدة في المجتمع، وتلك البنية قادرة على تنظيم مسيرته وتعمل على تقوية دعائمه، وهي جزء أساسيّ من نسيج الحياة السّياسيّة وأبرز حقيقة من حقائقها، وهي تؤثّر في المجتمع تأثيراً مباشراً وفاعلاً، وفق ذلك شهد الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ عمليّة اندماج، وصفت بأنّها دون المطلوب من الانصهار المجتمعيّ والرّعاية من السّلطة السّياسيّة، وتمثّل إشكاليّة بحدّ ذاتها، فالسّلطة الّتي تبنيّ الدّولة والمؤسّسات، تعاني من أزمة تطورها السّياسيّ على الرّغم من محاولات التّغيير والتّحديث على أنظمتها السّياسيّة، لكنّها عجزت عن تطوير الحياة السّياسيّة المعاصرة، الّتي تساعدها على الاستمرار في مواقع السّلطة؛ إذ تخضع لهيمنة الأيديولوجيا السّياسيّة كأداة لتغيير النّظام السّياسيّ أو الحفاظ عليه، "وهي مجموعة الأفكار والاعتقاد المتعلّقة بالدّولة والحكومات الّتي تكون جوهر العقيدة، وفي ذات الوقت مصدر الطّاعة الدّائم للقوى السّياسيّة"(درويش، ١٩٩٦، ص٤٥)؛ لتصبح الأيديولوجيا ورقة رابحة بيد النّظام السّياسيّ لكسب الشّرعيّة.

وتماشياً مع هذه النّظرة يكتسب (معابرة) أيديولوجيا للحدّ من نفوذ السّلطة السّياسيّة وطموحها، كاستجابة طبيعيّة لما لحق بالمجتمع من السّلطة السّياسيّة العربيّة، أساسها هشاشة البنية السّياسيّة؛ من غياب الدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان والتّحكّم التّعسّفيّ بالمجتمع، والبعض الآخر في تردّي الوضع الاقتصاديّ العربيّ، واختلال في المنظومة السّياسيّة المجتمعيّة والثّقافيّة، فيدعو إلى الانقلاب والتّحرّر من قيود سلطة النّظام، من خلال كشف الحقائق، وتحرّي تفاصيل الفساد،

ونقد الممارسات الخفيّة والظّاهرة؛ لنشر الوعي للمجتمع، واختراق المقدّسات السّياسيّة المضادّة للواقع، ليحاكي قلمه انتهاك الكرامات والحقوق والفساد والظّلم من قبل السّلطات، مدفوعاً بالانتماءات الاجتماعيّة السّياسيّة؛ إذ تمنحهم حقوقاً، وتحمّلهم مسؤوليّات، وتمثّل حافزاً لأصحابها؛ لبناء مجتمعات متكاملة متماسكة أكثر ازدهاراً، فيسير بخطى ثابتة لاستكناه انكساراتها وانحداراتها، ليضعنا أمام فوبيا السّياسة في مقال بعنوان: " دعدرجي" (معابرة، ٢٠٢٠، ص٨٣)، معبراً عن موقفه التّشاؤمي اليائس عبر السّخرية وتوابعها لمحاكاة هذا العجب والكمّ القياسيّ من الخراب والزّيف والتّزوير والتّلفيق؛ إذ ترد الممنوع والمحظور مسموحاً و "تهزّ المشاعر والأحاسيس، إنّها منبع التّكدير والإزعاج والمضايقة، والضّحك الّذي تثيره هو من النّوع الّذي يزعجك حقاً، من الّنوع الّذي يحرج القارئ.

وتراوح هذه السّخرية بين اليأس والتّهكمّ، بين المفاجأة والفضيحة بين الاستهزاء الّذي لا بّد منه والإحساس الجنائزيّ"(وازن، ٢٠١٣، ص٣٩)، فبرز أمامنا الخطاب الموازي للمهالك المحيقة بالوطن العربيّ والحكومات المهلكة للإنسانيّة، بقوله: " إنّ الحكومات العربيّة عندما تقوم بإطلاق الوعود المتكرّرة والمتتالية بمكافحة الفساد وتأتي بعكس ما وعدت به، فإنّها قد حقّقت لقب"السّوالفجي" الّذي كان يروي الأساطير والقصص الخرافيّة كما كان يفعل "النّضر بن الحارث" في زمن بعثه الرّسول صلى الله عليه وسلّم وغدر –بأساطير زائفة– النّاس أجمعين...وسأكون منصفاً لو أطلقت على معظم الحكومات المنصرمة لقب "الميصعجي" الّذي يطلق الوعود في تحسين أوضاع النّاس ويرجع ليضرب وعوده بعرض الحائط متجاوزاً آراء الشّعب بأكمله تاركاً وراءه تاريخاً يزخر بالأكاذيب المتتالية"(معابرة، ٢٠٢٠، ص٨٤).

النّزعة التّحرّريّة المنبثقة من الوعي بالأنظمة السّياسيّة العربيّة؛ تستدعي إزاحة سلطاتها غير القابلة للتّغيير، ولعلّ تلك الدّوافع تتأتّى عبر سعيه إلى تحقيق انهيار المراكز السّلطويّة السّياسيّة المتمركزة داخل الوعي الجمعيّ، إثر استمرار العلاقة الضّاغطة، وتطوّر المصاعب والتّمزّقات الحضاريّة؛ ممّا اقتضى التّأنّي في التّفكير، والتّعمّق في معاناة الواقع السّياسيّ، وتعدّد أبعادها الاجتماعيّة والواقعيّة، من هنا جنح إلى تحليل أطروحاته السّياسيّة الحاضرة في المنحنى الواقعيّ بطريقة مباشرة، ولتوضيح عقائديتها السّياسيّة اتّخذ اللّغة المحكيّة البسيطة المتداولة بين النّاس وسيلة للتّعبير عن مواقفهم، بما يعكس صورة دقيقة من الواقع الاجتماعيّ العربيّ والإنسانيّ، ليعبّر عن

الحالة السّياسيّة المزرية، عبر المعجم اللّغويّ النّابع من اللّغة التجريبيّة الخاصّة بالمبدع، حيث تولّدت عنها دلالات متعدّدة، إثر التّفاعل الوجداني مع المتلقّي، لتغيير الواقع على المستوى السّياسيّ، فينظر بازدراء واستخفاف لكثير من التّجارب السّياسيّة الزّائفة المشحونة بالكذب والتّضليل والفساد واللامبالاة وعدم المسؤوليّة وعدم الموضوعيّة، لتكون ثورة أخلاقيّة بغطاء ساخر على الممارسات اللاأخلاقيّة الّتي طفت على سطح المجتمع، متحدّياً ادّعاء النّظرة المثاليّة للتّجارب السّياسيّة المعادية للعلم والعقل والواقع؛ لذلك يفرّ من هذا العرض الأفقيّ للسّمات المتأصّلة في القوى السّياسيّة، وينطلق إلى أفق أرحب لترسيخ تلك النّظرة السّوداويّة على المستوى الرأسيّ الّتي تربطها بالجوانب السّياسيّة القوميّة والعروبيّة والإعلام السّياسيّ المؤدلج، بقوله:

"سأصبح عادلاً لو أنّني وصفت الحكومة بلقب "القهوجي" الّذي يتناسى جميع الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة المحيطة بالعرب والمسلمين؛ ليقوم بإعداد وتقديم القهوة للّذين يتقامرون في المقهى ضمن جوّ تعتريه المهزلة، تعاطي الفيروزيّات كما تفعل التلفزيونات العربيّة أثناء إلقاء القنابل على جملة كبيرة من العرب والمسلمين بغير وجه حقّ"(معابرة، ٢٠٢٠، ص٨٥)

ودخل في جزئيّة أخرى إلى عوالم ظاهرة التّشيّؤ[١] بدافع دحض عمليّات الإرادة والقصديّة؛ لفقده محمولاتها وتأثيرها، حيث يرسم واقع الحكومات السّياسيّة المأساويّ من خلال الصّراع القائم في واقع الأمّة العربيّة بالمفارقة الضّدّيّة الّتي تجمع الموت ورائحته الّذي يفوح منها الظّلم والطّغيان، وفي الطّرف الآخر حياة باعثها العبثيّة والمهزلة والغناء والقمار، يجمع المتناقضات لتجسيد الواقع بكلّ مفارقاته، التّي تتدرج ضمن تمظهرات مقنعة للظّاهرة الثّنائيّة في التّعارض؛ إذ ينحو إلى هدم تمخّضات الفكر السّياسيّ المحدود، وخلق تمركزات حديثة منطلقها الإنسان، إلّا أنّه يعلن عن وجوده وكينونته ومركزيّته في الوجود حيث تفضي إلى الاختلاف والتّعارض، بوصفها عوالم تستدعي الاشتباك مع الآخر ضمن مستويات أيديولوجيّة مختلفة، حقّقها بلمسة إبداعيّة ساخرة وهي بمثابة استنتاجات استدلاليّة، يمكننا تلمّسها بثيمة العدالة الّتي سعى إلى طرحها وكشفها انطلاقاً من

(١) التّشيّؤ (Reification): تحول الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة، واتخاذها لوجود مستقل، واكتسابها لصفات غامضة غير إنسانية، وهو نوع من اغتراب الإنسان عن نفسه، في ظل تحول الإنسان إلى شيء أو سلعة تباع وتشترى، وهي قمة الاغتراب وفقدان الذات. انظر: ماركس، كارل، **رأس المال**، ترجمة فالح عبد الجبار وآخرين، دار التقدم، موسكو، مجلد ١، ج٢، ص١٠٨.

إيضاح الحقائق المشكلة لحال اليقين عند الذّات المبدعة في نسق يتّسم بالمحدوديّة والسّلبيّة؛ حيث تنتفي العدالة من الحكومات في الصّورة الأولى والثّانية التّي تعجّ بالممارسات الذّميمة والانشغالات السّفيهة عن القضايا العربيّة المحيطة من قتل وإبادة للمسلمين، متنحّية عن الفكر المحيط بالقدر الكافي الذي يسمح بثمالة الفساد والبيروقراطيّة، وبين غياب المروءة السّياسيّة وهشاشتها في تحمّل المسؤوليّة.

يطلّ من الواقع المعيش رمز "القهوجيّ" لسيطرة النّوع الاجتماعيّ على الاقتصاد السّياسيّ، في حين يحتمل مدلول القطيعة والإقصاء داخل المجتمع وفق منطق السّذاجة والسّطحيّة والعبثيّة في تحمّل المسؤوليّات الاجتماعيّة الّتي تتقاطع مع سمات الحكومة الّتي تمظهرت أبعادها في ثنايا بنيته النّصّيّة الّتي تفرز الاشتباك ما بين الأحداث الواقعيّة المرتبطة بالرّمز والمعطى السّياسيّ القامع للحياة، بوصفها تمثّلات مختلفة تنزاح نحو صياغة الحضور بوساطة مقترباتها الفكريّة، الّتي أدّت نتائجها إلى تكثيف التّأثير العاطفيّ، وتحقيق الدّلالة الشّعوريّة والرّؤيويّة، الّتي عمّقها في الخاتمة بطريقة استثنائيّة، بقوله:

"إنّه ومن باب الأمانة الأدبيّة، يجب أن أنصف تلك الحكومات بإطلاق لقب"الدعدرجي"، وهو نوع من المخلوقات البشريّة الّتي توجه لّكماتها المتتالية على رؤوس خصومها لتحصل –في النّهاية– على هضبة لحميّة عجز العلم القديم والحديث عن علاجها، ولكنّها (فقط) أطلق عليها اسم "الدّعدرة"" (معابرة، ٢٠٢٠، ص٨٥)

قدّم مشهداً فنتازيّا كشف ديمومة الأزمة السّياسيّة الّتي تتسرّب إلى السّلوك المجتمعيّ، وأنتج حضورها في صيغ مؤدلجة دلالات تعكس التّواطؤ مع الحقل السّياسيّ على الرّغم من التّعارض المشين والمهين، المحتّم للقطيعة، الأمر الّذي وضّحه في تبنيه شكل المادّة النّسقيّة؛ إذ يطالعنا بعتبة الخروج من النّصّ المتماهية والمتناصّة مع العنوان بمفارقة تناصيّة، تحمل الازدراء لهذه السّلطة السّاقطة الزّائفة، حيث يثير دهشة المتلقّي ببناء ساخر مناقض لحقيقة الموقف، فينصّب (معابرة) من نفسه قاضياً عادلاً مثال الصفات النّبيلة أبرزها الالتزم بالأمانة، يتولّى الدّفاع عن الحكومات الّتي اعتدت وذلّت ونكّلت في العباد، وهذا الاستبدال الصّريح تعرية للتّجاوزات وإقرار بانتهاكات الحكومات، وفي ذات الدّلالة النّصّيّة استعان الكاتب بلقب" الدّعدرجي" هو رمز لمن اعتدى على الآخرين بلكمات على الرّأس، في نسق ملحميّ تتآزر العناصر في صياغة صرخة الإدانة في وجه

طغاة السّياسة، وأمام هذا اللّهو الغارق الّذي يعيشه النّاس فلا مناص من الإصرار على نقل المعاناة ونبذ الظّلم والصّمود في وجه طغيان الحكومات، فحلّق في الخيال، واقتبس من التّراث المعجميّ، وألقى قناعاً على تجربته الشّخصيّة والقوميّة القاسية، لتصبح البؤرة الأساسيّة في عمله، بإجراء تحوير في النّصّ التّراثيّ، يتناسب مع الواقع الحديث؛ ليرسل من خلاله الشّيفرات الدّلاليّة للمتلقّي، فأخذ يسلّ الحديث من القديم في رسم صورة المعاناة، هرباً من واقع هزمته الحكومات، وانتصرت عليه ببطشها.

تعدُّ مشكلة الفساد السّياسيّ من المشاكل الاجتماعيّة الخطيرة والّتي تهدّد أمن واستقرار المجتمع والمدينة الديستوبيّة برمّتها، ممّا دفع المبدع للوقوف في وجه الظّلم السّياسيّ والمعاناة والتّعسّف والقهر بمختلف الطّرق الممكنة والمجدية، سعياً لترميم انكساراته الدّاخليّة الّتي تفضح الانتهاكات الإنسانيّة، وفي خضمّ هذا التّمزّق والضّياع يستمرّ في التّعايش وتنازع الوجود مع الكيانات السّياسيّة الّتي تتّضح وتنفضح من خلال استثمار مخزون الذّاكرة الثّقافيّة، لخوض الصّراع الإنسانيّ، فيظلّ حبيس آلامه في الانتماء المنسجم مع التّراث الشّعبيّ؛ إذ يتشبّث للمحافظة على ذاته، الّتي تتّضح بالتّحرّر من حياته العصريّة والمحليّة والانكفاء على التّراث الرّحب؛ لما ينطوي عليه من قيمة دلاليّة وجماليّة يثري بها نصّه، فجاهر بثقافته وبيئته وأيديولوجيّته باستدعاء اللّعبة الشّعبيّة "حاكم جلاد"(معابرة، ٢٠٢٠، س٤٩) وأسقطها على مقاله المعنون بذات الاسم، مصرّحاً بشفافيّة عن مفهوم اللّعبة، وكيفيّة ممارستها، والقيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة الّتي تغرسها في النّفوس، أبرزها حكم السّلطة العادلة وتحمّلها المسؤوليّة بشكل دقيق، إلّا أنّه ينفتح على القيم الجماليّة والرّؤيويّة، بتحوير المرجعيّة الشّعبيّة بشكل موارٍ عمّا رسخت في عالم اللّاوعي ذات الدّلالات والرّموز الرّاسخة في موروثنا الشّعبيّ، لتبرز معبّرة عن حالات وخصوصيّات سياسيّة واجتماعيّة تتواشج مع الحالة الشّعوريّة للكاتب، بقوله:

"لا أريد أن أسقط متن الحديث أو معناه على ما ينبثق عن مفهوم اللّعبة الشّعبيّة المعروفة باسم "حاكم، جلّاد"؛ ولكنّني أريد أن أنوّه عن مفهوم عميق لم ينتبه إليه معظم البشر؛ وهو أنّ ذلك الحديث يعدّ الوحيد، وقد يكون الأوحد الّذي يجمع نوعين من الفساد في نصّ واحد" "الفساد السّياسيّ" و"الفساد الأخلاقيّ"، فمن هنا أكاد أجزم أنّ هناك إشارة محمّديّة عظيمة تقودنا إلى مفهوم فلسفيّ، أتجرّأ أنّ أقول فيه: إنّه لم ينتشر الفساد السّياسيّ؛ إلّا بعد أن اضمحلّت الأخلاق، كما أنّه لم ينتشر الباطل، إلّا بسكوت الحقّ عنه"(معابرة، ٢٠٢٠، ص٤٥)

ويستدرج المتلقّي ويستميله لعمليّة إخضاع لنشاطه الفكريّ وانعكاساته الخلّاقة في السّياقات التّراثيّة الّتي اتّخذت طابعاً سيريّا تتلمّس انكسارت الذّات، ضمن إحالة بصيغة سياسيّة مخاتلة، أسقط محمولاتها الإيحائيّة والفنّيّة ضمن حواريّة في ميدان المواجهة تزاوج بين روح العصر وأصالة الماضي، والّذي يفرزه الاستياء والتّمرّد للنّهوض والارتقاء، استناداً إلى شكل الفعاليّات السّياسيّة مخوّلاً ارتباطاً عاطفيًّا عبر مفتاحيّة النّصّ (العنوان) الملتقط من المشهد الفلكلوريّ العربيّ، رابطاً في مشاركة فاعلة بين زمن مضى وآخر أتى، من هنا تجسّدت صرخة النّقد المواري في المفارقة بين الواقع السّوداويّ والرمّز التّراثيّ الشّعبيّ، والّتي تنسجم مع بنية الخطاب بصورة تعمّق من فداحة التّناقض وتبرز بشاعة الاستغلال وقساوة الحياة بصبّغ جزيئاتها بالإسقاط التّراثيّ والتّضمينات الفكريّة الثّقافيّة، فاتّجه إلى اللّعبة الشّعبيّة للتّأثير على رؤية العالم على صعيد المقاربة الموضوعيّة، ومن الجانب الآخر تؤشر دلاليّاً إلى عدميّة الجدوى من الإصلاحات في ظلّ واقع تتساق أفعاله باتجاه تمنطق العقل الإنسانيّ على وفق اشتراطات اللّعبة (حاكم جلّاد) الّتي تتماشى مع السّلطة السّياسيّة، فاسترجاعها من التّاريخ وما تحفل به الذّاكرة الفلكلوريّة من الإدهاش والمتعة، أعاد خلقه داخل المتجسّد النّصّيّ، كمهيمن موضوعيّ وجماليّ، فالنّصّ حاضن للإشارات تدلّ على رمزيّة "الحاكم" و"الجلّاد" و"اللّصّ"، إذ عملت كقرائن دالّة على طبيعة الرّمز والإحالة، القابعة في المخيّلة الشّعبيّة، وهذا يمنح النّصّ دوراً فاعلاً للتّعبير عن أزمته النّفسيّة بتحوير المادّة الفلكلوريّة ومضامينها، فإنّ رموز اللّعبة الطّفوليّة السّابقة تتماهى وتنسحب على الشّخصيّات الحقيقيّة وفق مقاربة تبوح بمختلف الدّلالات حيث ترتكز على الجدل الواقعيّ في تلازميّة كلّ من الفساد الأخلاقيّ والسّياسيّ، وهذه الثّنائيّة تتماشى والسّياق الدّلاليّ؛ إذ ينصهر طرفاها في كشف واقع اللّعبة الشّعبيّة وأعضائها وأساليبهم ومؤامراتهم واحتيالهم وفسادهم الطّفوليّ النّابع من الأسرة الواحدة، ثمّ ينطلق ليعمّ الفساد الاجتماعيّ في الأرض قاطبة، ولا يقف عند إدانة الفاسدين بل من رأوا الفساد وارتضوه وإن كانوا ضحايا ذلك، لينتهي المطاف بالفساد السّياسيّ.

بهذا يعدُّ خطاب (معابرة) وثيقةً أدبيّةً، تحمل رؤية سياسيّة، كسر قيود التّابو السّياسيّ، فرفض واقع الحكومات والسيّاسيّين بلسانه السّليط، وندّد بالسّياسات الحكوميّة، ونقد حكّامها وكشف السّتار عن خطاياهم وممارساتهم المبتذلة بأسلوب ساخر يحقّق السّلطة على المتلقّي، سلطة الفكر والرّؤيويّة الموضوعيّة والشّعوريّة، الّتي تحمل بعدّاً ثوريّاً على الكيانات السّلطويّة الاستبداديّة،

المنتهكة للقيم الإنسانيّة، والقوانين المحلية والعربيّة، لتحقيق الوعي السّياسيّ للمجتمع، لأهميته في قوّة بنائها الاجتماعيّ والثّقافيّ والاقتصاديّ، وبالتّالي انسجام أفراد المجتمع مع النّظام السّياسيّ وجدانيًّا ومعرفيًّا، وقد تزامنت مع الصّراعات الأيديولوجيّة بمثابة وثيقة تقريريّة للمرحلة الرّاهنة وللسّجل التّاريخيّ، ومحاكاة التّجربة العربيّة بطرح صريح مباشر وآخر مضمر، تعرّية السّخرية المريرة الطّاغية وفق أنساق ثقافيّة موارية.

٣. **الدّينيّ**

تناول (معابرة) الخطاب الدّينيّ تناولاً إشكاليّاً، يتجاوز كونه منظومة فكرية وعقائديّة إلى تشكيل فنّيّ وجماليّ، وجسّد خطابه انزيّاحاً دلاليّاً عن طاقته الرّوحيّة؛ إذ تمكّن من تحويله إلى أيديولوجيا ورؤيا للعالم الاجتماعيّ، تتلاقح مع التّراث الدّينيّ في خضمّ العمليّة الإبداعيّة مضيفاً قيمة دلاليّة وثراء معرفيّاً مرتبطا بتجربة المبدع الشّعوريّة، بما يحقّق التّواصل مع المتلقّي، بغية تحفيز الذّاكرة الجمعيّة للوصول إلى المخزون المعرفيّ والفنّي، نظراً لما تتمتّع به المرجعيّة الدّينيّة من حضور وتأثير في الوعي الجماعيّ، ممّا يتيح للمبدع التّعبير عن رؤاه وقضاياه في تكثيف لفظيّ ودلاليّ وأسلوبيّ يجنح للخلود والبقاء، "ينبع من خصوصيّة اللّحظة الّتي مثّلتها الرّؤيّة الدّينيّة في سيّاق التّجربة الوجوديّة الإنسانيّة، ولذلك فالأديب يتّخذ من هذه التّجربة بما تحمله من دلالات وتوتّر وكثافة أساساً يقيم عليه رؤيته للواقع العربيّ"(نجم، ١٩٩٧، ص٤٨).

إن نقد المرجعيّة الدّينيّة لم يكن موجهاً للدّين في كيانه وقدسيّته، وإنّما تمركز نقدها على الشّخصيّة المتطرّفة الّتي مثّلت المرجعيّة الدّينيّة في النّصّ، فبات يحاكم الواقع ويقوّمه من خلال استدعاء الأحداث والشّخصيّات الدّينيّة في أنساقه الخطابيّة، المرتبط ببعض الرّموز الخاصّة الّتي تتّفق تجاربهم مع تجربته الذّاتيّة، لأجل إحداث تغيير في المسار السّياسيّ والاجتماعيّ، فقام بتطويع شخصيّاتها، لنقل مراده الفكريّ وتعزيز ثورته على الأنظمة السّياسيّة والدّينيّة بأسلوب ساخر واعٍ، وقد استثمر هذا المخزون القابع في الذّاكرة ذا التّأثير الكبير في المتلقّي، وعاد به إلى تراثٍ عريق ومقدّس، بعد أن جرّده من خصوصيّة الزّمان والمكان، لينطق بلسان حاله، مستخلصاً من الإحداث والشّخصيّات رموزاً للرّفض، والتّضحية، والصّبر، والغدر، وتوظيفها في السّياق الأدبيّ، بما يخدم رؤاه وأفكاره وواقعه المعيش.

فينكشف الغطاء عن خلخلة البنية المجتمعيّة وإعادة توزيع مرتكزاتها شكلاً ومضموناً عن طريق تقويض مرتكزات فلسفيّة قائمة على الاشتغال مع السّلطة الدّينيّة، من هنا ساق لذاكرة المتلقّي

شخصيّة (الخطيب) الرّمز، بدلالاتها الحاضرة في الذّاكرة الاجتماعيّة، منطلقاً إلى أفق أوسع وأكثر استيعاباً للعناصر الجماليّة، في منجز إبداعي متجاوزاً دلالاتها المعجميّة والدّينيّة إلى سلطة اللّغة الفنّيّة والتّجربة الشّعوريّة، في عرض مشهد سرديّ يحقّق النّقد للشّخصيّة الدّينيّة المتطرّفة ومساءلة المرجعيّة المتعالية، بقوله: "نداءٌ آخر يردّده خطباء آخرون لبيان أنّهم على استعداد تام لتزويد الجلساء (في الخطبة القادمة) بمزيد من المواعظ المتكرّرة والقصص الدّينيّة المحقّقة وغير المحقّقة، فالنّوع الأخير يمتلك استطاعة مطلقة في قلب المشهد الواقعيّ إلى مشهد تراجيديّ اجتماعيّ حال استعانته بابتسامة رقيقة تتّبعها جملة "سبحان الله" التي يمزجها بنغمة يعتريها الحزن والعاطفة"(معابرة، ٢٠٢٠، ص١٠٣)

أفضت عمليّة التّسوية بين عملية الفهم والوجود وإعادة بناء أنساقها الأدبيّة إلى تمثّلات مغايرة للوظيفة الملقاة على عاتق (الخطيب)، والانزلاق إلى مراحل متأخّرة من التّطوّر الفكريّ، والاكتفاء بالوجود الهامشيّ في النّسق الّذي يجنح نحو إنتاج معنى مفارق، باعتماده على خلخلة الأطر المنطقيّة الرّاسخة في الذّاكرة الجمعيّة، فالمفارقة وسيلة فنّيّة تحقّق هدفاً جماليّاً، فضلاً عن إيصال رسالة بلاغيّة للمتلقّي، كسرت أفق توقّعه، بإقامة علاقة مفاجئة بين الدّال والمدلول تمثّل انزياحاً دلاليّا، يفضي إلى خلق نصّ جديد يحمل الرّؤيا المعاصرة للمبدع الّتي تعدّدت أبعادها وتداخلت مع المرجعيّات الثقافيّة في تعقيد شديد، والّتي تمتلك فاعليّتها من الجمع بين المتضادات عبر حضورها في سياق واحد، وتجعله متحيّزاً إزاءها، دالّا على سيادته في مخيّلة المبدع؛ أوردها على سبيل السّخرية، بقوله (سبحان الله) كشيفرة تواصليّة، لتعرية الواقع الدّينيّ والاجتماعي، ورفضه للواقع القيميّ وتمظهراته بمشهد فنتازيّ تخرجه من طبيعته المتعارفة، فيخرج (الخطيب) الرّمز، رجل الدّين والمنوط بالوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، عن كلّ الأخلاقيّات المتوخّاة من صدق وأمانة ويتحلّل من المثل العليا في تعاطيه مع الأحداث والقصص الدّينيّة، ليصبح (سينارست) يمزج الواقع بالتّراجيديا، وممثّلاً مبدعاً يخلق الابتسامة والعاطفة حسب مقتضيات الموقف، فمنحت المتناقضات حضور الزّيف والخداع كمهيمن من مهيمنات الواقع العربيّ، وتمّ ذلك بقلب المعادلة المنطقيّة، كما نجده في نصّه" حبّة تحت اللسان"، بقوله:

"خاصّة إذا التفت الخطيب إلى الرّؤوس المهتزّة الّتي تعلن قبول تلك الأساطير، فتتفتح قريحته حالئذ، فيستدعي الانفعال ليبدأ بالصّراخ وإطلاق العبارات وتصنيف البشر إلى فئات، ثم نعت الشّعوب

الكافرة وإسقاط ما وصلت إليه الحضارات، مستثمراً تلك الجملة الّتي بات مفعولها يساوي مفعول الحبة المنعشة للقلب الّتي يطلق عليها الأطبّاء اسم" حبّة تحت اللسان" "(معابرة، ٢٠٢٠، ص١٠٣)

فتح نقد (معابرة) المستويات الثقافيّة المتماهية في النّسق نحو الهيمنة على شتّى مفاصل الخطاب الدّينيّ، دون الرّبط بالمعطى الدّينيّ الّذي لا يقبل الانزياح أو المغايرة، عبر الإيغال في الظّواهر السّطحيّة، بغية الوصول إلى باطنها، وكشف حقيقتها؛ إذ ازدحم خيال المبدع، بكثرة المتناقضات التي يراها ثغرات أخلاقيّة ودينيّة واجتماعيّة، وهي البؤرة المركزيّة في عمليّة التّوتّر بين الذّات المبدعة والمجتمع العربيّ، وسعيه لإزاحة التّخلّف والجمود، لذلك استرسل في طرح رؤيته الّتي تدخل ضمن جرائم العصر إلّا أنّها جزء من تراثنا السّلبيّ وواقعنا الاجتماعيّ من خلال صورة رمزيّة شكّلت معادلاً موضوعيّاً دالاً عن طبيعة الضّياع والتّخبّط، والمشاعر المصاحبة والتّأثير اللامحدود، حيث تترك بصمات واضحة في نفس المتلقّي جملة (حبّة تحت اللسان)، إثر رمزيّتها المنعشة والمحفّزة والمتوقّدة المرتبطة بالخطيب حصريًّا؛ فيتعمّق الأثر الإيحائيّ بحراك متواصل إلى تدجين نصّه بتقنيّة السّخرية، كونها تمنح النّصّ فعاليّة وعمقاً وتكثيفاً دلاليّاً، تسلّط الضّوء على التّبعيّة العمياء لرجال الدّين وهي نقطة حسّاسة في المنظومة الاجتماعيّة، وهذا متأتٍّ من فاعليّته وقدرته على الحضور المتقاطع مع هالة القداسة الأسطوريّة المحاط بها اجتماعيًّا، بالخروج عن النّسق المعتاد والتّحوّل إلى المعنى السّلبيّ والحالة البائسة والمزرية للنّموذج، ويستكمل استياءه الشّديد وغيظه الحزين لأجل الإنسانيّة، بقوله:

"بينما كنت في مجلس عند أحد الكبراء وكان ينطق بكلام غريب يناقض شريعة الله، حتى سمعت أحد الجالسين: يقول: "سبحان الله"، فقلت في نفسي: ما ظننت أنني أعيش حتى أرى وأسمع أن كلمة "سبحان الله" يأثم قائلها"(معابرة، ٢٠٢٠، ص١٠٤).

تبنّى النّصّ السّخرية بوصفه منهجاً استدلاليّاً نحو إيضاح حقائق الدّيستوبيا المشكلة لحالة اليقين الزّائفة المتمركزة حول الذّات المنقادة للآخر، وذلك يعيد (معابرة) مكانته في التّفرد القيميّ، وهو بمثابة نقد جوهريّ للقدرات العقليّة وتطلّعاته اليقينيّة؛ إذ ينفجر بأسى عميق، وإشفاق رصين على الّذين زحف الانحراف الدّينيّ على أخلاقيّاتهم وعقليّتهم السّاذجة، بوصفه فاعلاً مثاليًّا قبليًّا على الجميع الامتثال له، ويرى نفسه ضحيّة ذلك الظّلم فقد وقّع عليه أيضاً، فلا غرابة فهذا الأذى كبير لحق الجميع وما يزال حاضرا في مجتمعاتنا، وينشر قلقه ومخاوفه ومعاناته من خلال مونولوج تتبدّى مفارقته الّتي تتّصل بتعظيم الله وتنزيهه وبالوجود والمجتمع ومن ثمّ تنعكس صورتها وتكثّف ايحائيتها في أوجه مناقضة للانتماء الدّينيّ والالتزام الشّرعيّ، ليمثّل رؤيته الّتي تضرب عمق الذّات لهذا العالم

المنسلخ عن عقيدته وقيمة بما تحمله من ألم ومعاناة، حيث عانى وقعه، فشحذ العواطف، وألّب الأحاسيس لزعزعة موقف المتلقّي من العالم الموضوعيّ، دافعاً إيّاه إلى رؤيةٍ جديدةٍ، تمنحه الطّهر والوجوديّة، وهذا ما أظهرته اللّغة الانزياحيّة الواضحة تجلّياتها في مقولة " سبحان الله" الّتي تنفتح على دلالات متعدّدة عند استنطاقها، والتّماهي مع الذّات المبدعة فكريّاً ورؤيويّاً، والتّمعّن بانشغالاتها النّصّيّة والدّلاليّة.

اشتدّ رفض (معابرة) لمدينة الدّيستوبيا الّتي تعاني منها الشّعوب العربيّة، في دعوة للعودة إلى مركزيّة الذّات المبدعة، باعتبارها المنطلق نحو فهم العالم المحيط، وإعادة مكانتها في الوجود، وصياغة أولويّاتها؛ ممّا يمكنه من تأسيس رؤية جديدة لعالم مثاليّ، فارتفع صوته، وتعالت صرخاته بالتّنديد بأهم أسباب تأخّر الأمّة وانحرافها وانتكاسها، فبدا موقفه الرّافض لكلّ ما يمسّ القيم الإنسانيّة، ودخل معركته الشّجاعة وبادر بالهجوم على ممارسات المؤسّسة الدّينيّة، وخصّ الشّخصيّة المتطرّفة الّتي مثّلت المرجعيّة الدّينيّة (الخطباء) بنظرة كاشفة في مقالة: (الخطاب الدّينيّ وتمأسّس الفشل)، وأخذ يتحسّس مواطن تماديهم وفحشهم، في مرآة تنقّل جانباً من الصّورة، في قوله:

"إنّ من أسباب تأخّر الأمّة وانحراف عوامّها عن الاستقامة، هو الخطاب الدّينيّ الموجّه وغير الموجّه، من الخطباء الّذين يتسيّدون المنابر، ويبثّون روح الكراهيّة والحقد من خلال كلامهم وفتاواهم غير المسؤولة، الّتي يحرّض جزء منها على الكره وزرع الضّغينة، وتكفير فلان، وتنصير علان، فضلاً عن تأصيل فكرة الفقه المسيّس الّذي لا نفع منه في زمن التّكنولوجيا الحديثة"(معابرة، ٢٠٢٠، ص١٦١).

اتّخذ (معابرة) من تشكيلات الدّيستوبيا السّاخرة معادلاً موضوعيّاً لانتفاء الثّوابت، وديمومة التّجدّد؛ بإزاحة المتطلّبات الفكريّة الواقعيّة، وتفعيل مركزيّات مغايرة للوعي الإنسانيّ السّائد الّتي أخذت تجنح إلى انتهاك مركزيّة السّلطة الدّينيّة في خطاب فكريّ خالد يحفل بالانتصارات الفكريّة، منطلقاً إلى أفق أوسع متجاوزاً الدّلالات الدّينيّة إلى سلطة اللّغة الإبداعيّة، ذات الارتباطات الشّرعيّة بالحقوق المجتمعيّة، عبر بنيات تحاكي تطوّراته، بما يؤدي إلى تغيير علاقته بالقوّة المركزيّة، وعلى الرّغم من البعد القيميّ المتهالك، أخذ يشخّص التّحديّات والعقبات، ويحمل مشروعاً فكريّاً إصلاحيّاً، يؤسّس ويسعى إليه، خلافاً للمنظومة الدّينيّة الاجتماعيّة السّائدة، ويحطّم القيود والأعراف البشريّة المتوارثة الّتي التفّت حول فئة دينيّة، انزاحت عن وصاية المنجز الدّينيّ، بوعيها الاستبداديّ، وفكرها المغيّب، وتأويلها القاصر،

وفرضت تصوّراً أضحى هو المقدّس بعيداً عن النّصّ القرآنيّ، بثّت من خلاله العنف والتّطرّف والإرهاب، وروّجت لحقائق مزيّفة للعبث بالمنظومة الاجتماعيّة، لخدمة الحكومة الإسلاميّة، وفق أيديولوجيّة وهيمنة مركزيّة ترفض الآخر، وتعظّم الذّات المتطرّفة والمتعصّبة، ليصبح الخطاب الإسلاميّ المرتجى معادلاً موضوعيّاً للكتاب المقدّس، ثم يتماهى الخطاب الأنموذج مع رؤيويّة المبدع الّتي تتلمّس الشّرعيّة الدّينيّة إثر تشظّي شخصيّة الخطباء المتطرّفة، عبر مرجعيّة دينيّة نقلها خطاب بوعي حقيقيّ ومعنى جوهري للتّديّن، ورسّخ تلك المفارقة في قوله:

"لا شكّ أنّنا بحاجة إلى خطاب إسلاميّ واعٍ، يدرس حالة الأمّة وينقّب عن مواضع الخلل فيها، بحيث يكون ناقداً يخرج من خطباء أجلّاء وعوا خطّتهم المرسومة لهذه الغاية، حتّى لو كان ذلك بأمر مقيّد من وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة في الأردنّ".(معابرة، ٢٠٢٠، ص١٦٢)

نرى بصمات واضحة لدى المبدع للتّأثّر بـ (إرادة القوّة) (لنتشة) عن طريق إخضاع الخطاب لمركزيّة القوّة بالقوّة؛ ممّا حتّم عليه تحليلاً عميقاً للوقائع ووجودها وتطوّراتها المفروضة، بما يتناسب مع حاجات المنظومة الدّينيّة والاجتماعيّة، مستحدثاً الحلول البديلة المفترضة على النّظام القائم ضمن فرضيّة التّعارض والهدم؛ فالأحلام اليوتوبيّة وجدت طريقها إلى التّطبيق بالخطاب الذي يسعى إلى توظيف النّصّ القرآنيّ المقدّس، وفقا للمتطلّبات الدّينيّة والتّاريخيّة والسّياسيّة، مع ضرورة امتلاك موثوقيّة العقيدة بنصوصه وتأويلاته، وإقصاء التّأويلات الأخرى الخارجة، في سياق إسلاميّ معاصر، وإن كان يراعي الجهة المستهدفة (الحاكمة)، مما أرسى أرضيّة صلبة في ضوء المرجعيّات السّياسيّة الّتي تبنّتها، شملت الخيارات الأيديولوجيّة والممارسات السّياسيّة، كخطاب موجّه استندت عليه الجهات الحكوميّة، فأضحى دعامة أيديولوجيّة للسّلطة السّياسيّة لتحقيق الهيمنة والمركزيّة، كترسيخ للشّرح الّذي تعانيه المنظومة الاجتماعيّة.

النتيجة:

تناول البحث الدّيستوبيا السّاخرة في الأدب وتمثّلاته في "كتاب أمّة تنسحب من التّاريخ" أنموذجاً، وخلص إلى جملة من النّتائج، يمكن عرضها على النّحو الآتي:

تلمّس البحث الأبعاد المعرفيّة والجماليّة للدّيستوبيا السّاخرة، وأثرها في التّجربة الأدبيّة، بما يثري النّتاج الإبداعيّ ويعمّق دلالته، عبر التّلاقح النّصّيّ مع المرجعيّات الاجتماعيّة والسّياسيّة والدّينيّة، الّتي تفرضها الذّات المبدعة على المتجسّد النّصّيّ المتّسق والجانب الأيديولوجيّ القابع في

المخيال، لبلورة التّجربة الشّعوريّة ضمن النّظريّة السّوسيوثقافيّة، بحيث تمظهرت المرجعيّات الثّقافيّة كمرتكز مساند للذّات المبدعة المهيمنة على عالم النّصّ الخلّاق، الممتدّ في غياهب الفكر الإنسانيّ.

ولذلك احتلّت الدّيستوبيا السّاخرة مكانة بالغة الأهمية بوصفها دالًّا ثقافيًّا، وحقلًا تواصليًّا معرفيًّا، تبدّى بطريقة متواشجة مع الحالة الشّعوريّة، في عمليّة إبداعيّة كُشفت خفاياها من خلال الفهم العميق للمعرفة وأبعادها الدّلاليّة، وتوظيفها في نقل انشغالاته الفكريّة والنّفسيّة، بالانفتاح المؤدلج، على الأحداث السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة، فينخرط النّصّ في جدليّة العلاقة المزدوجة مع المرجعيّات الثّقافيّة والوقائعيّة، مستنداً إلى الطبيعة المتداخلة والمتفاعلة في النّصّ الطّامح إلى التّجديد والتّوسّع الدّلاليّ.

وقد تبيّن للمتلقّي تسليط (معابرة) الضّوء على الدّيستوبيا السّاخرة في النّصوص الأدبيّة، بما يثري النّتاج الإبداعيّ ويعمّق دلالته، عبر التّلاقح النّصّيّ مع الأنساق الثّقافيّة الموازية، الّتي كشفت مركزيّة الذّات المبدعة، وصراعها مع المنظومات السّياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة، ضمن منهجية ساخرة فرضتها التّحدّيات المعاصرة، متبوّئا مكانة تواصليّة جماعيّة ضمن القيم الانطباعيّة والإقناعيّة متجاوزاً فرديّة الرّؤى وإدخالها ضمن الاندماج والتّماهي، في تشكيل معطيات الواقع المعيش، للوشي بالأيديولوجيا الثقافيّة المسكوت عنها، لمنحها أعلى درجة من التّأثير والإثراء في المتلقّي جماليّا ودلاليّا، لتحطيم الدّيستوبيا المحيطة ورفض مقوّماتها ومظاهرها ونتائجها سعيا لتحقيق اليوتيوبيا المثاليّة.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو حسون، حسين، "جدل الأنساق الثقافية المضمرة في رواية عائشة بنور"، **مجلة مقاربات العلوم الإنسانية**، المغرب، عدد (٢٤)، ٢٠١٦، ص٦٤.
- أبو ديب، كمال، **جدلية الخفاء والتجلي**، ط٣، دار العلمين للملايين، بيروت، ١٩٨٤.
- البحيري، أسامة، **معجم المصطلحات الأدبية والنقدية**، دار النابغة المصرية للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م.
- برجكاتي، فاطمة، الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة، **مجلة إضاءات نقدية (محكمة)**، السنة ٨، عدد ٢٩، أذار٢٠١٨، ص١٣٦.

- الجمري، جعفر، الماغوت وهو الخائف الوجل سبب قلقا لكثيرين في (شرق عدن....غرب الله)، **صحيفة الوسط البحرينية**، العدد٤٣٩٦، الجمعة ١٩ سبتمبر ٢٠١٤.
- حنفي، عبد الحليم، **التصوير الساخر في القرآن الكريم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢.
- درويش، إبراهيم، **النظام السياسي دراسة فلسفية تحليلية**، ج١، ط٢، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦.
- الدقاري، مصطفى، **نحو تصور لدراسة المرجعية- مفهوم النص**، ٢٠٠٧، www.airssforum.net>forum>4759
- الرويلي، ميجان. البازعي، سعد، **دليل الناقد الأدبي-إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً**، المركز الثقافي العربي، ط٣ الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٣.
- الزعبي، زياد، **نص على نص، قراءات في الأدب الحديث**، منشورات أمانة عمان الكبرى، الأردن، ٢٠٠٢.
- سعيد، خالدة، الملامح الفكرية للحداثة، **فصول**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج٤، ع٣، ٢٠٠٦، ص٣٢.
- سِيد، ديفيد، **الخيال العلمي مقدمة قصيرة جداً**، ترجم نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧.
- شحادة، أسامة، السخرية في رسائل النيهوم والبحث عن المثالية وصدمة الواقع، **مجلة الصادق**، بنغازي الجماهيرية العظمى، ٢٣إبريل، ٢٠٠٩، ص٨.
- طه، نعمان، **السخرية في الأدب العربي**، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة، ١٩٨٧.
- العجيمي، محمد الناصر، في أسلوب الخطاب الساخر، أنموذجا البخلاء تحليل، **مجلة موارد**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامة بسوسة، تونس، ع٣، ١٩٩٨، ص١٠
- عصفور، جابر، **أوراق ثقافية**، المركز العربي المصري، ٢٠٠٣.
- علي، منى، الدستوبيا في رواية (فرنكشتاين في بغداد) دراسة تحليلية، **مجلة الخليج العربي**، مج٥٠، ع٤، كانون الأول ٢٠٢٢، ص٢٢١.
- الغذامي، عبدالله، **النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، ط٢، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠٢م.

- غربي، وبزة، المخيال الديستوبي بين رواية"١٩٨٤" لجورج أورويل و"٢٠٨٤"حكاية العربي الأخيرة لواسيني الأعرج، **مجلة المدونة**، مج١٠، عدد٢، ديسمبر ٢٠٢٣، ص٤٢٣.
- فاركلوف، نورمان، **تحليل الخطاب، التحليل النصي في البحث الاجتماعي**، ترجمة: د. طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.
- لالاند، أندريه، **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة: خليل أحمد عطية خليل، ج٢، ط، ٢ بيروت، ٢٠٠١.
- لحمداني، حميد، **بنية النص السردي(من منظور النقد الأدبي)**، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.
- مراشدة، عبد الرحيم، مراشدة، عبد الباسط، شعرية الكتابة في مدونة الكتاب–أمس المكان الآن– للشاعر أدونيس، **مجلة المنارة للدراسات والبحوث، سلسلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مج ٢، عدد٣، ٢٠٢٣، ص١٦٩–ص١٩٦.**
- معابرة، وليد، **أمة تنسحب من التاريخ**، دار المشكاة للنشر والتوزيع، إربد، ٢٠٢٠.
- نجم، مفيد، التناص ومفهوم التحول في شعر محمد عمران، **مجلة الموقف الأدبي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع٣١٧، أيلول وتشرين الأول، ١٩٩٧، ص٤٨.
- النويهي، محمد، ثقافة الناقد الأدبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩.
- وازن، عبده، السخرية السوداء، مجلة الدوحة، ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، ع٧٠، ٢٠١٣، ص٣٩.